وصف المتنبى لذاته

دراسة بلاغية نقدية

الدكتور

رمضان عاشورأبوزيد

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي تقصر الأقطار أن تحويه ، وتعجز الأستار أن تخفيه ، حمدًا يقتضي تضاعف نعمائه،وترادف آلائه ، فهو الرافع لمن انخفض تواضعًا لجلاله ، والفاتح الباب لمن انتصب طالبًا لأفضاله ، وأصلي وأسلم على خير خلقه ، وخاتم رسله ، سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه ، واقتفى أثره إلى يوم الدين . **وبعـــــد** :-

فمنذ الأيام الأولى في دراستي الجامعية أدركت قيمة المتنبي الشعرية ، ومكانته الأدبية ، فقد كان اسمه وشعره يطرقان آذاني ، ويمسان شغاف قلبي في معظم قاعات الدرس الجامعي ، وقد شدني هذا الخلاف القائم بين أساتذتي في شخصية المتنبي وشعره ، فمنهم من كان يحكم عليه بميزان البلاغة فيرفعه بشعره إلى عنان السماء ، ومنهم من كان يحكم عليه بميزان الشرع ، فيهوي به إلى القاع ، ويحكم عليه بضعف العقيدة . وهذا الخلاف لم يكن وليد اللحظة ، وإنما هو ضارب بجذوره في كتب التراث العربي ، فهو خلاف متأثر بما جاء في هذا التراث ، وهذا الخلاف جعلني في توق وشوق إلى التعرف على شخصية هذا الشاعر، والحكم عليه حكمًا يزيل هذه الحيرة التي خلفها بداخلي هذا الخلاف ، ووجدت في نفسي رغبة ملحة لدراسة شعر هذا الرجل الذي ملأ الدنيا ، وشغل الناس على حد تعبير ابن رشيق ، وكنت واحدًا من هؤلاء الذين شغلهم المتنبي بشخصه وشعره ،فعزمت على التعرف على شخصية هذا الشاعر والحكم عليه من خلال شعره ، ومن خلال ما نطق به لسانه ، لا من خلال ما تناقلته مجالس الأدباء والنقاد ؛ لأن هذه المجالس كانت لا تخلو من التلفيق ؛ خاصة وأن المتنبي قد رزئ بخصومات من أدباء عصره لم يرزأ بها شاعر مثله على مر العصور .

وعندما حانت لحظة التسجيل لمرحلة الماجستير ، ثم الدكتوراه كانت الفرصة سانحة لتحقيق هذه الرغبة في دراسة شعر المتنبي ، إلا أن عهدًا كنت قد أخذته على عاتقي ، وألزمت به نفسي جعلني أتنحى عن هذه الرغبة ، وهو أن أبدأ حياتي العلمية بدراسة كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وقد تحقق لي بفضل الله تعالى ، وبفضل أساتذتي ما أردت ، فقد درست البلاغة النبوية في مرحلة الماجستير ، والبلاغة القرآنية في مرحلة الدكتوراه ، وكان لزامًا عليَّ بعد ذلك أن أحقق ما تصبو إليه نفسي منذ زمن بعيد ، فاتجهت إلى شعر المتنبي الذاتي ، لأجمع بذلك بين التعرف على شخصية المتنبي وشعره . ولما كان الشعر الذاتي في ديوان المتنبي أوسع مجالاً من أن يحويه بحث اتجهت إلى جانب من جوانب هذا الشعر ، وهو الذي يتحدث فيه المتنبي عن صفاته ، فكان موضوع هذا البحث **{ وصف المتنبي لذاته (دراسة بلاغية نقدية) }** ولا شك أن دراسة شعر المتنبي تثري البلاغة العربية ، وتمدها بالجديد من الألوان البلاغية ؛ وذلك لما يحويه هذا الشعر من الأساليب والمعاني المبتكرة التي كسر بها المتنبي قيود الشعر العربي ، هذا بالإضافة إلى ما في دراسة هذا الشعر من تهذيب النفس ـ لما فيه من أخيلة دقيقة ومعانٍ رقيقة ـ وترقيق الحس ، وتثقيف اللسان ، وتكوين الملكة البلاغية ، كما أن دراسة الشعر الذاتي للشاعر خير وسيلة للتعرف على شخصيته والحكم عليه ؛ لأن الحكم على الشاعر في هذه الحالة لا يعتمد على الروايات المتناقلة ، وإنما يعتمد على ما نطق به الشاعر نفسه .

وقد اتبعت في دراستي المنهج التالي :

أولاً : حصرت الصفات التي وصف بها الشاعر ذاته ، ووضعت الصفة عنوانًا رئيسًا أبدأ به الدراسة ، وقمت بتعريف هذه الصفة ، ثم ذكرت من الشواهد ما يبرزها ، ويبين درجتها في القوة ، ويظهر بلاغة المتنبي في تصويرها والكشف عنها .

ثانيًا : رتبت الصفات في البحث حسب أهميتها بالنسبة للشاعر ، فبدأت بالحديث عن الفصاحة والشجاعة ، لأنهما من أهم وأكثر الصفات التي تحدث عنها المتنبي ، وقدمت الفصاحة على

الشجاعة ؛ لأني رأيت المتنبي عند الجمع بينهما يقدم صفة الفصاحة على الشجاعة من ذلك قوله[١]

جفَتْني كأنّي لَستُ أنْطقَ قوْمِها وأطعنَهم والشّهبُ في صورةِ الدُّهمِ

وجاءت العفة في المرتبة الثالثة ؛ لأني رأيت العفة في شعره مرتبطة بالشجاعة كما في قوله[٢] :

لا أنْ يكونَ هكَذا مَقالـــي فتًى بنِيرانِ الحُروبِ صَالِ

مِنْهَا شَرَابي وَبهَا اغْتِسَالي لا تَخْطُرُ الفَحشاءُ لي ببَالِ

ولما رأيت غالب حديث المتنبي عن صبره وخبرته كان في المراحل الأخيرة من حياته جعلت الحديث عن صبره ، ثم الحديث عن خبرته في الترتيب الأخير من الدراسة ، وتوسط البحث الحديث عن علو منزلته ومكانته ، ثم الحديث عن علو همته وطموحه ؛ لأن الذي يظهر من شعر المتنبي أن علو المنزلة ، وعلو الهمة في مرتبة واحدة في الأهمية بالنسبة له .

ثالثًا : ربطت الشواهد بالقصيدة التي تنتمي إليها ، ثم بينت الغرض والمناسبة التي قيلت فيها القصيدة ، ثم ذكرت المطلع الذي بدأت به ، وذلك إيمانًا مني بان القصيدة وحدة متكاملة ، وسياق واحد لا يتجزأ .

رابعًا : ذيلت الدراسة في نهاية كل صفة تحدث عنها المتنبي بملخص أرصد فيه أبرز السمات في حديث المتنبي عن هذه الصفة .

خامسًا : اعتمدت في تحقيق الأبيات ورواياتها على ديوان المتنبي طبعة المكتبة الثقافية ـ بيروت ـ لبنان ، وإذا كان للبيت روايات أخرى أشير إليها ، مع التوجيه البلاغي لاختلافها ، والمفاضلة بينها ، وبيان أيها أنسب وأبلغ في التعبير عن مراد الشاعر ومقصده .

سادسًا : لم أقف من الشاعر موقف المتعصب له ، المعجب بكل ما يقوله ، بل إنني تعاملت معه تعامل الناقد المحايد الذي يظهر الجيد ويبرزه ، ويقف على الرديء ويبين أسبابه .

سابعًا : اتبعت في دراستي المنهج التحليلي الذوقي مقتفيًا في ذلك أثر الإمام عبد القاهر الجرجاني ، فأبرزت الخصائص والأساليب البلاغية التي وظفها المتنبي في الكشف عن الصفة التي يتحدث عنها ، مبينًا أثر هذه الخصائص والأساليب ودقتها في إبراز هذه الصفة ، ومدى التآزر والترابط بين الأساليب داخل النظم في الكشف عنها ، مع الوقوف على خصوصية الكلمات والجمل داخل السياق .

هذا وقد اقتضت طبيعة هذا المنهج أن يأتي هذا البحث في قسمين من الدراسة تسبقهما مقدمة وتذيلهما خاتمة : أما المقدمة ففيها إظهار لقيمة الموضوع ، ودوافع اختياره ، ومنهج السير فيه ، وأما القسم الأول من الدراسة :فهو الدراسة التمهيدية ،وعنوانها(المتنبي وخصائص شعره) ، وأما القسم الثاني فقد احتوى على الدراسة البلاغية وكانت في ترتيبها كالتالي :

أولاً : بلاغة المتنبي في وصفه لفصاحته وبلاغته

ثانيًا : بلاغة المتنبي في وصفه لشجاعته

ثالثًا : بلاغة المتنبي في وصفه لعفته

رابعًا : بلاغة المتنبي في وصفه لعلو منزلته ومكانته

خامسًا : بلاغة المتنبي في وصفه لعلو همته وطموحه

سادسًا : بلاغة المتنبي في وصفه لصبره وجلده

سابعًا : بلاغة المتنبي في وصفه لخبرته وتجاربه

أما الخاتمة ففيها رصد لأهم نتائج الدراسة .

هـــــذا وباللـــه التـــوفيـــق

---

(١) ديوان المتنبي ص ٨٠ ط المكتبة الثقافية ـ بيروت ـ لبنان

(٢) الديوان ص ٥٦٠

القسم الأول : الدراسة التمهيدية

(المتنبي وخصائص شعره)

أولاً : المتنبي (مولده ـ اسمه ونسبه ـ كنيته ولقبه ـ وفاته)

مولده :

لا خلاف بين العلماء في مولد المتنبي ، فقد ذكرت كتب الأدب والتراجم أنه ولد بالكوفة في حي يسمى كندة ، وكان ذلك سنة ثلاث وثلثمائة هجرية [١] .

اسمه ونسبه :-

أما اسمه فهو : أحمد بن عبد الصمد الجعفي الكوفي ، كان والده يعرف بعيدان السقّاء[٢]؛ لأنه كان يمتهن مهنة السقاية . وهو " من قبيلة جعفي بن سعد العشيرة بن مذحج ، واسم سعد هذا : مالك بن أدد بن زيد بن يشجب بن غريب بن زيد بن كهلان ، فالمتنبي عربي صحيح النسب " [٣]

هذا هو المشهور في كتب الأدب والتراجم عن نسب المتنبي ، وهناك خلاف في نسبه إلا أن المجال لا يتسع لسرد هذا الخلاف ؛ لأن البحث ليس بصدد الحديث عن تحقيق النسب ، وإنما نذكر على سبيل المثال رأي الأستاذ محمود شاكر ، فقد أثبت من خلال شعر المتنبي أن المتنبي كان شريفاً علوياً [٤].

إلا أن الدكتور : مصطفى الشكعة خالف ما ذهب إليه الأستاذ : محمود شاكر ، مستندًا على الروايات المشهورة ، التي جاءت في كتب الأدب والتراجم ، والتي تؤكد أن والد المتنبي كان رجلاً فقيراً ، أطلق عليه لقب عيدان السقّاء ، ورد على الأستاذ شاكر بأن هذه الروايات ، التي تناولت نسب المتنبي لم نجد فيها ما يشير إلى أن المتنبي كان شريفاً علوياً[٥] .والسر في هذا الخلاف في النسب ، هو أن المتنبي لم يفصح في شعره عن نسبه ، وقد سئل عن نسبه فقال : " أنا رجل أحفظ القبائل ، وأطوي البوادي وحدي ومتى انتسبت لم آمن أن يأخذني بعض العرب بمطالبة بينها ، وبين القبيلة التي أنتسب إليها ، وما دمت غير منتسب إلى أحد ، فأنا أسلم على جميعهم ، ويخافون لساني "[٦] .

كنيته ولقبه :

كني بأبي الطيب ، ولقب بالمتنبي ، وقد دار جدل حول هذا اللقب ، فمن العلماء من رأى أنه لقب بالمتنبي لادعائه النبوة [٧] ، ومنهم من رأى أنه لم يدع النبوة ، وإنما هو لقب لفقه له أعداؤه وحساده [٨] . وهناك رأي ثالث يرى أن المتنبي ليس من النبوة ، وإنما هو من النبو ، أي المرتفع من الأرض ، يقول أبو العلاء المعري " وحدثت أنه سئل عن حقيقة هذا اللقب ، قال : هو من النبو : أي المرتفع من الأرض "[٩] . وسواء أكان خبر ادعاء المتنبي النبوة صحيحًا ، أم غير صحيح ، فإن هذا اللقب قد لصق بالمتنبي ، حتى طغى على اسمه ، وأصبح عنواناً لشخصيته .

---

(١) ينظر يتيمة الدهر لأبي منصور عبد الملك بن بحر بن إسماعيل الثعالبي ، ت مفيد محمد قميحة ١٤١/١ ط دار الكتب العلمية ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣م . ،

(٢) ينظر الأنساب للإمام أبي سعيد عبد الكريم بن محمد أبي منصور التميمي السمعاني ، ت عبد الله عمر البارودي ٥/ ١٩١ ، ط دار الجنان ط أولى ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م . وينظر تاريخ بغداد للإمام الحافظ أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي ت دكتور / بشار عواد معروف ٥ /١٦٤ ـ ١٦٥ ، ط دار الغرب الإسلامي ط أولى ١٤٢٢ هـ ـ ٢٠٠١م . ، وينظر الأعلام للزركلي ٥ /٢٧٤ ط دار العلم للملايين بيروت لبنان ، الطبعة الخامسة عشرة ٢٠٠٢ م ، وينظر الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف من الأسماء والألقاب ، تأليف علي بن هبة الله بن أبي مضر بن ماكولا ٦ / ٩٩ ط دار الكتب العلمية ـ بيروت لبنان ـ ط أولى ١٤١١ هـ

(٣) مقدمة تحقيق اللامع العزيزي ، شرح ديوان المتنبي لأبي العلاء أحمد بن عبد الله المعري ت ـ محمد محمد سعيد المولوي ص ٨٠ ، طـ مركز فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ، ط أولى ١٤٢٩ هـ ـ ٢٠٠٨م .

(٤) ينظر المتنبي (رسالة في الطريق إلى ثقافتنا) للأستاذ محمود محمد شاكر ص ٥٣ - ٥٤ ، مطبعة المدني ـ دار المدني بجدة ١٤٠٧هـ ـ١٩٨٧ م.

(٥) أبو الطيب المتنبي في مصر والعراقين دكتور / مصطفى الشكعة ص ٢٢ ـ ط عالم الكتب ط أولى ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣م

(٦) الأنساب ٥ / ١٩٢ ، وينظر تاريخ بغداد ٥ / ١٦٦

(٧) ينظر يتيمة الدهر ١ / ١٤٢ ، والأنساب ٥ / ١٩١

(٨) ينظر المتنبي (رسالة في الطريق إلى ثقافتنا) ص ٢٣٤ ـ ٢٣٥

(٩) رسالة الغفران لأبي العلاء المعري ت د / عائشة عبد الرحمن ص ٤١٨ ، ط دار المعارف ـ الطبعة التاسعة .

وفاته :

توفى المتنبي مقتولاً ، وكان ذلك في رمضان سنة أربعٍ وخمسين وثلاثمائة ، وهو في طريق عودته إلى بغداد ، بعد أن مدح عضد الدولة في فارس [١] ، وفارق المتنبي الحياة جسداً ، إلا أنه لم يفارقها أديباً وشاعراً ، فما زال المتنبي مالئ الدنيا وشاغل الناس .

ثانيًا : خصائص شعره :

المتنبي من أشهر شعراء العربية ،بل إنني لا أكون مبالغاً إذا قلت : إنه أشهر شعراء العربية علـــــى الإطلاق. " فليس اليوم مجالس الدرس أعمر بشعر أبى الطيب من مجالس الأنس ،ولا أقلام كتاب الرسائل أجرى به من ألسن الخطباء في المحافل ، ولا لحون المغنيين والقوالين أشغل به من كتب المؤلفين والمصنفين،وقد ألفت الكتب في تفسيره ، وحل مشكله وعويصه ، وكثرت الدفاتر على ذكر جيده ورديئه ،وتكلم الأفاضل في الوساطة بينه وبين خصومه، والإيضاح عن أبكار كلامه وعونه ، وتفرقوا فرقا في مدحه والقدح فيه ، والنضج عنه ، والتعصب له وعليه، وذلك أول دليل على وفرة فضله ، وتقدم قدمه ، وتفرده عن أهل زمانه [٢]" فقد امتلك ناصية اللغة ،وتمكن من قواعدها ، ومفرداتها ، وتربع على عرش البيان ، فكان صاحب الأمثال السائرة ،والحكم النادرة ، وكان ظاهرة فريدة في عصره ، فلم يجنح إلى التكلف السائد في عصره ، وإنما جعل جُل اهتمامه بالمعاني ، وقد ساعده التمكن من اللغة ، بجانب موهبته الفذة على الاختراع ، والابتكار للمعاني الجديدة التي لم يسبق إليها ، وفي هذا يقول ابن جني " فأما اختراعه للمعاني ، وتغلغله فيها ، واستيفاؤه لها ، مما لا يدفعه إلا ضد ، ولا يستحسن معاندته إلا ند[٣] ".

فالمتنبي يعد ظاهرة من ظواهر التجديد في الشعر العربي ، فقد كان " محطماً لتقاليد الشعر العربي ، كاسراً لأطواقه ، خارجاً على المألوف منها [٤]" فهو بحق كما يقول الأستاذ محمد مندور " إمام الطريقة الابتداعية في الشعر العربي [٥]" .

وشعر المتنبي صورة دقيقة ، وواضحة لذاته ، وصفاته ، وطموحاته ، " وإن أهم ما يميز المتنبي بروز شخصيته في شعـــره ، وصـــدق إيمانه برأيه ، وقوة اعتزازه بنفسه ، وصحة تعبيره عن طبائع النفس [٦]" .

وقد مر شعر المتنبي بمرحلتين :

الأولى : مرحلة الصبا ، وفيها يظهر التمرد والعصيان ، والتظاهر بالقوة ، والاعتداد الزائد عن الحد في كثير من الأحيان بالنفس ، وعدم التقيد بالضوابط الشرعية في إطلاق الألفاظ والعبارات ، مما جعله عرضة للاتهام في العقيدة ، وفي هذه المرحلة تتردد أسماء الأنبياء في شعره ، و من ذلك قوله[٧] :

مَا مُقَـامِي بِأرْضِ نَخْلَةَ إلا كَمُقَامِ المَسِيحِ بَينَ اليَهُـــــودِ .

وقوله[٨] :

أنَا في أمّةٍ تَداركَـهَا اللـــ ـهُ غـــريبٌ كصَالِحٍ في ثمـــودِ .

وفي خصائص شعر المتنبي في هذه المرحلة يقول الأستاذ محمود شاكر : " كان شعر أبي الطيب في

---

(١) ينظر الأنساب ٥ / ١٩٣

(٢) يتيمة الدهر لأبي منصور الثعالبي ١ / ٧٦ ط مطبعة الحسين ، مصر ١٩١٦م .

(٣) الفسر شرح ابن جني الكبير على ديوان المتنبي لأبي الفتح عثمان بن جني ت د / رضا رجب ١ / ٤ ، ٥ ط دار الينابيع ـ دمشق ، ط أولى ٢٠٠٤م .

(٤) أبو الطيب المتنبي في مصر والشام ص ٥ .

(٥) ينظر النقد المنهجي / محمد مندور ص٦٢ ط دار نهضة مصر ١٩٩٦م

(٦) مقدمة تحقيق معجز أحمد لأبي العلاء المعري ت د / عبد المجيد عبد الجيد دياب ص ٩٦ ط ٢ دار المعارف ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م.

(٧) الديوان ٢٠

(٨) الديوان ص ٢٢

أول أمره قد اختلط بألفاظ لا تستقر في الشعر ، وقعت إليه من ألفاظ المتكلمين ، والمتفلسفة ، وأصحاب المنطق ، وأهل الجدل في الملل والنحل ، وغير ذلك ، وكان أسلوبه يجري على طريقة هؤلاء في التوجيه ، والتقسيم ، ثم في توليد المعاني الشعرية على طريقة أهل العصر في توليد معاني الجدل والحجاج[١] " ، ولذلك تجد المتنبي في هذه المرحلة الأولى التي نظَّم شعره فيها في مناطق متفرقة من الشام والعراق وفلسطين يكثر من التعقيد اللفظي والمعنوي ، ويتكلف أحياناً استعمال الغريب ؛ للدلالة على غزارة شعره[٢] .

أما المرحلة الثانية في شعره ، فهي مرحلة النضج والكمال الشعري ، وقد بدأت هذه المرحلة بعد عودته إلى الكوفة سنة ٣٢٣ هـ ، وفي هذه المرحلة يخرج شعر المتنبي من نفس مجربة ، ومن أحاسيس صادقة ، ومن طبيعة تتفاعل مع واقع أمتها العربية ، وفي هذا يقول الأستاذ محمود شاكر " لما عاد إلى الكوفة سنة ٣٢٣ هـ ، وهي مقر كثير من أئمة العلم والأدب والشعر ، ولزم مجالسهم سنتين أو أشف قليلاً ، عملت هذه المجالس في تهذيب علمه الذي وقع عليه في الصغر ، وعملت طبيعته الشعرية في هذه العلوم عملها ، وكان له من الفراغ ما يكفيه للتفكير والاتساع في النظر ، وللترجيح والتعديل بين علمه وطبيعته ، ثم كان له من توقد ذهنه ، واشتعال قوى نفسه الملتهبة بأحقادها وآلامها ، ما يحمله على استخراج روائع المعاني التي توافق همه وألمه ، وعلى توليد الآيات البيانية التي تتصل بما في قلبه وفكره ، وعلى اختيار العبارة التي تكون في إيجازها بمنزلة الرمز الذي يدور في نفسه من المعاني المطولة[٣] ".

فالفارق ـ إذاً ـ واضح بين شعر المتنبي في هذه المرحلة ، وشعره في المرحلة الأولى ، فقد كان شعره في هذه المرحلة الثانية " مختاراً كله ، بريئاً من السخف واللغو ، أو كاد والمدقق في كافورياته يرى من جلال المعنى ، وجمال اللفظ والصياغة ما يشهد أنه بلغ كمال النضج "[٤].

وقد تناول المتنبي في شعره معظم الأغراض الشعرية من مدح ، ورثاء ، وغزل ، وفخر ، وعتاب ، وهجاء ، ووصف ، إلا أن أكثر الأغراض الشعرية في ديوانه هو المدح ، وقد أجاد المتنبي في هذا الغرض ، وأبدع . وكثرة غرض المدح في شعر المتنبي فرضته الحقبة الزمنية التي كان يعيش فيها ، فقد ظهر في هذا العصر ما يسمى ببلاط السلطان ، حيث كان الشعراء يلتفون حول الملك أو الأمير يمدحونه ، ويغدق عليهم الأموال ، حتى أصبح المدح في هذا العصر وسيلة كسب ، ولقمة عيش يعيش عليها الشاعر .

وأصدق مدائح المتنبي ، وأكثرها ، وأبدعها كانت في سيف الدولة ؛ لأن هذه المدائح خرجت من تجربة صادقة ، فقد أحب المتنبي هذا الرجل ، وأخلص له ، لما رأى فيه من صفات البطل العربي المفقود ، الذي كان يبحث عنه في هذا الزمن الذي ضاعت فيه عزَّة العروبة ، وقوتها ، وكرامتها .

---

(١) المتنبي (رسالة في الطريق إلى ثقافتنا) ص ٢٤٥ .
(٢) ينظر مقدمة تحقيق معجز أحمد ص ٩٧ .
(٣) المتنبي (رسالة في الطريق إلى ثقافتنا) ص ٢٤٥، ٢٤٦ .
(٤) ينظر مقدمة تحقيق معجز أحمد ص ٩٧ .

القسم الثاني : الدراسة البلاغية

أولاً : بلاغة المتنبي في وصفه لفصاحته وبلاغته :-

الفصاحة في اللغة : عبارة عن الإبانة ، وهي في المفرد : خلوصه من تنافر الحروف ، والغرابة ، ومخالفة القياس ، وفي الكلام خلوصه من ضعف التأليف ، وتنافر الكلمات ، مع فصاحتها ...، وفي المتكلم ملكة يقتدر بها على التعبير عن المقصود بلفظ فصيح [١] .

أما البلاغة فهي في اللغة : الوصول والانتهاء ،[٢] ، وهي في الكلام : مطابقته لمقتضى الحال ، وفي المتكلم ملكة يقتدر بها على تأليف كلام بليغ[٣] .

والمتأمل في شعر المتنبي يجد الحديث عن فصاحته ، وبلاغته الشعرية ،من أبرز ما تغنى به عند الحديث عن صفاته الذاتية ، وهذا يرجع إلى كثرة الخصومات بينه وبين الشعراء ، فقد " كان كثير الخصومة مع شعراء زمانه ، وهي خصومة عميقة الجذور متشابكة الفروع ، تحدث ـ دائماً ـ بين أبناء المهنة الواحدة ..، غير أن حساد المتنبي يشكلون أكبر عدد من الخصوم رزئ بهم شاعر واحد "[٤] .

وحُق للمتنبي أن يفخر بهذه الفصاحة والبلاغة ، فبها عاش في بلاط الملوك والأمراء ، وبها خلدت ذكراه ، فكم من ملك وأمير لا يُعرف إلا من خلال شعر المتنبي ، ولكن ما من ملك أو أمير إلا ويعرف من هو المتنبي ، أليس ذلك شيئاً جديراً بالفخر به ، والحديث عنه ؟

فها هو يتحدث عن هذه الفصاحة والبلاغة العالية ، والموهبة الشعرية النادرة ، فيقول[٥] :

أَنَا الذي نَظَرَ الأَعْمَى إلى أَدَبِـي ... وَأَسْمَعَتْ كَلِماتي مَنْ بِهِ صَـــمَمُ

أَنَامُ مِلْءَ جُفُوني عَنْ شَوَارِدِهَا[٦] ... وَيَسْهَرُ الخَلْقُ جَرَّاهَا[٧] وَيَخْتَصِمُ .

فالمتنبي هنا يتحدث عن ذيوع أدبه وشعره ، الذي ملأ الآفاق ، وذلك لما يحويه من فصاحة وبلاغة عالية ، وما يتصف به صاحبه من موهبة نادرة ، وهذا الحديث عن فصاحة المتنبي وبلاغته جاء في قصيدته المشهورة ، التي يعاتب فيها سيف الدولة ، والتي بدأها بقوله :

وَا حَرَّ قَلْباهُ مِمَّنْ قَلْبُهُ شَبِمُ ... وَمَنْ بِجِسْمي وَحالي عِنْدَهُ سَقَمُ

وسبب هذه القصيدة أن سيف الدولة تحامل على المتنبي وتعرض له بما لا يحب ، وذلك في حوار دار بينه ، وبين قومٍ متشاعرين[٨] . وقد جاء قوله: (أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي) مفصولاً عن البيت الذي قبله وهو قوله : **سَيَعْلَمُ الجَمعُ ممّنْ ضَمّ مَجلِسُنا ... بأنّني خَيرُ مَنْ تَسْعَى بِـه قَدَمُ**

؛ لشبه كمال الاتصال ، فالبيت الثاني جاء بمنزلة الجواب عن السؤال الذي أثاره البيت الأول ، وذلك لأن قوله (سيعلم الجمع ... إلخ) أثار في نفس السامع سؤالاً عن السبب في كونه خير من تسعى به قدم ، فكانت الإجابة في قوله (أنا الذي نظر الأعمى ... إلخ) فالوصل هنا وصل معنوي ، وهو أقوى من الوصل بحروف العطف . وفي مثل هذا الموضع من الفصل يقول الإمام عبد القاهر " وإذا استقريت وجدت هذا الذي ذكرت لك ، من تنزيلهم الكلام إذا جاء بعقب ما يقتضي سؤالاً ، منزلته إذا صرح بذلك السؤال كثيرًا " [٩]. ولما كان مجلس سيف الدولة يضم عدداً من الشعراء الحاقدين ، الذين أوغروا قلب سيف الدولة على المتنبي عرف الشاعر المسند إليه بضمير النفس(أنا)الذي يشعر بالتوحد والتفرد ، والظهور ، فالمتنبي يرى نفسه فريدًا،وحيدًا ، في الساحة الشعرية ،فهو لا يعترف إلا بنفسه ، ولا يعتد

---

(١) التعريفات تأليف علي بن محمد الشريف الجرجاني ص ١٧٤ ط جديدة مكتبة لبنان بيروت ١٩٨٥ م .

(٢) ينظر لسان العرب لابن منظور ٨ / ٤١٩ ،ط دار صادر ـ بيروت ، الطبعة الأولى .

(٣) الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني ت الشيخ / بهيج غزواي ج ١ / ١٣، ١٥ ط دار إحياء العلوم ـ بيروت ط ٤، ١٤١٩ هـ ـ ١٩٩٨م.

(٤) أبو الطيب المتنبي في مصر والعراقين ص ٩١

(٥) الديوان ص ٣٣٢

(٦) شرد البعير والدابة ، يشرد شرادًا ، وشرودًا ، فهو شَرود : ذهب على وجهه ، ومنه قافية شرود : سائرة في البلاد (المخصص لأبي الحسن علي بن إسماعيل النحوي اللغوي الأندلسي ٢ / ١٩٣ ت خليل إبراهيم جفال ، ط دار إحياء التراث ـ بيروت ط ١ ـ ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦ م .

(٧) جراها : أي من أجلها (اللسان ٤ / ١٣٠)

(٨) المتنبي (رسالة في الطريق إلى ثقافتنا ص ٣٤٤)

(٩) دلائل الإعجاز ٢٣٥

إلا بذاته ، يدلك على ذلك هذه النظرة المحقرة للشعراء من حوله في قوله[١] :

أفي كل يوْمٍ تحتَ ضِبْني شُوَيْعِرٌ ضَعيفٌ يُقاويني قَصِيرٌ يُطاوِل

فهذا الضمير (أنا) يعكس بقوة ما بداخل شخصية المتنبي من كبرياء ، وإعجاب بالذات ، واعتزاز بفصاحته وبلاغته ، وقد جاء هذا الضمير ملائمًا لمقام إثبات الذات ، فهو يريد أن يبرز صفاته ، وتفرده أمام سيف الدولة ، حتى يعيد ثقة سيف الدولة المفقودة فيه .

وقد جاء المسند في قوله : (الذي نظر الأعمى إلى أدبي) معرفًا باسم الموصول ؛ ليصنع مع الضمير أسلوبًا من أساليب القصر طريقه التعريف ؛ وليؤكد المتنبي بهذا الأسلوب تفرده بما جاء في حيز الصلة ، ويؤكد موهبته وفصاحته التي تجاوزت الحدود ، وكسرت القيود ، فهو وحده الذي تسلط عليه الأسماع والأبصار. ويبدو أن ما دعا المتنبي إلى تسليط الحديث عن نفسه ، وتناسي شخصية سيف الدولة ،في كثير من أبيات القصيدة ـ على غير عادته في مدحه لسيف الدولة ـ شئ ليس باليسير ، بل هو حدث كبير ، جعل قلبه يلتهب غضبًا ، ويشتعل غيظًا ، حتى رأينا هذه النبرة الصارخة ، الشديدة اللهجة ، في سياق القصيدة من بدايتها إلى نهايتها . فالقصيدة جمعت بين العتاب الشديد اللهجة الذي وصل إلى درجة الوعيد ، وبين إظهار الحب الشديد لسيف الدولة ، وبين الاعتداد والاعتزاز الزائد بالنفس ،وما تمتلكه هذه النفس من صفات ومواهب ،لذا يقول : الأستاذ محمود شاكر : " وقد أتى المتنبي في هذه القصيدة بكل عجيبة في الكبرياء ، والحب لسيف الدولة ، والوعيد له " [٢] .

ويتصاعد حديث المتنبي عن نفسه ، حتى يصل إلى حد المبالغة ، وذلك في جملة الصلة ، وما عطف عليها ، في قوله : (نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صمم) ، فالمتنبي بهذه المبالغة يغير حقائق الأشياء ،فهو يجعل للأعمى بصرًا،ويجعل للأصم سمعًا ، وهي مبالغة مقبولة في مقامها ؛لأن المتنبي في موقف دفاع عن أدبه وشعره ، وفي موضع ردٍ على مَنْ يشككون في قدراته ومواهبه ، بالإضافة إلى أنه يحاول أن يستميل قلب سيف الدولة إليه ، بعدما نجح الحساد في تعكير الصفو بينهما ،كل هذه الملابسات تطلبت من المتنبي أن يبالغ في الحديث عن أدبه ، فالغرض من هذه المبالغة إظهار قوة تأثير هذا الأدب ، وتخطيه لكل الحواجز والحدود،وذلك لما يحويه من الفصاحة والبلاغة . وألمح في هذه المبالغة تعريضًا لمن يحضر مجلس سيف الدولة من الوشاة والحساد ، الذين يحاولون التشكيك في مقدرة المتنبي الشعرية ؛ لأنه إذا كان الأعمى والأصم يتأثران بشعر المتنبي ، فمن بابٍ أولى أن يعترف هذا المنكر صاحب البصر والسمع بجمال هذا الشعر ، وقد أشار إلى هذا المعنى أبو العلاء المعرى بقوله في معنى البيت " إذا نظر الأعمى إلى أدبي يعرفه ويراه فكيف البصير ؟ والأصم يسمع شعري ، فكيف السميع ؟ "[٣] ، فبهذه المبالغة أراد المتنبي التعريض بأن الذي لا يعترف بشعره من الحاقدين ، به عيب في حواسه ، وهو ليس معطل الحواس فقط ؛ لأن معطل الحواس يتأثر بشعر المتنبي ، وإنما هو معطل البصيرة والإدراك .

هذا وقد رأى بعضهم أن لفظ الأعمى في البيت ليس المراد به حقيقة الأعمى ، وإنما المراد به الجاهل ، والمعنى الذي يقصده المتنبي : أن أدبي وشعري قد اشتهرا حتى استوى في معرفتهما العالم والجاهل[٤] ، وعلى هذا يكون في قوله : (نظر الأعمى) استعارة تصريحية شُبه فيها الجاهل بالأعمى ، كما جاء في قوله تعالى : {هل يستوي الأعمى والبصير[٥] }، وأرى أن الأولى والأنسب لغرض الشاعر ومراده هو حمل الكلام علي حقيقته ؛ لأن المتنبي أراد أن يبالغ في إثبات فصاحته وبلاغته ، وحمل الكلام على الحقيقة أقوى في الدلالة على هذا المراد من حمله على المجاز .

ونبرة الاعتزاز بالذات مسيطرة على النظم ، يظهر ذلك في إيثار ضمير النفس المتمثل في ياء المتكلم في قوله : (نظر الأعمى إلى أدبي) ، وقوله : (وأسمعت كلماتي) يقول المعري : " إنما

---

(١) الديوان ٣٧٧

(٢) المتنبي (رسالة في الطريق إلى ثقافتنا ص ٣٤٤)

(٣) ينظر معجز أحمد ٣ / ٢٥٣ .

(٤) الصدر نفسه ٣ / ٢٥٣ .

(٥) سورة فاطر الآية رقم (١٩)

الواجب أن يقال إلى أدبه ، وأسمعت كلماته "[١] فالعدول من ضمير الغيبة إلى ضمير النفس يبرز قوة الاعتزاز بهذا الأدب ، وقوة الفخر بنسبته إلى النفس ، فهو أدب خاص بالمتنبي ، في حوزته ، وفي ملكه ، لا يشاركه فيه أحد . وقد ناسب بين الجمل فعطفت جملة : (وأسمعت كلماتي من به صمم) على جملة : (نظر الأعمى إلى أدبي) وذلك لما بين الجملتين من التوسط بين الكمالين ، فقد اتحدتا في الخبرية لفظًا ، ومعنى . ولما كان المخبر عنه بالجملتين المعطوفتين بالواو واحدًا كان الجمع بالواو هنا أكثر قوة وظهورًا ، وفي هذا يقول الإمام عبد القاهر " واعلم أنه إذا كان المخبر عنه في الجملتين واحدًا .. ازداد معنى الجمع في الواو قوة وظهورًا ، وكان الأمر حينئذٍ صريحًا "[٢]

وأول شيء يطالعك في البيت الثاني أسلوب الكناية في قوله : (أنام ملئ جفوني) فهذه الكناية تكشف عن ارتياح شديد داخل نفس المتنبي لأدبه ، وثقة عالية لا حدود لها في قصائده ، وكلماته ، فهذه الراحة النفسية جعلته ينام من غير قلق ولا أرق ، بل ينام نومًا ساكنًا هادئًا .

وتأتي الاستعارة المكنية في قوله : (شواردها) لتظهر الكلمات في صورة البعير النافر ؛ لأن الشوارد من قولهم : شرد البعير ، إذا نفر ، فالنفور من لوازم البعير، إلا أنه أثبته للكلمات ؛ لأن الضمير في قوله : (شواردها) يعود إليها . والكلمات يمكن أن يراد بها جمع كلمة ، التي هي اللفظة الواحدة ، وهذا أشد في المبالغة من غيره ، ويجوز أن يعني بالكلمات القصائد ، وهم يسمون القصيدة كلمة[٣]. وعلى هذا ، فالاستعارة المكنية في قوله : (شواردها) غرضها إظهار سرعة انتشار كلمات المتنبي ، وقصائده ، في الأماكن والمجالس ،فهي كالبعير النافر في سرعة انتشارها ، وقطعها المسافات البعيدة ، وذهابها إلى كل الآفاق والأقطار.

وتأتي المقابلة بين قوله : (أنام ملئ جفوني)، وقوله : (ويسهر الخلق) لتظهر التناقض بين حال المتنبي الهادئ الساكن في فراشه ، وبين حال الناس الذين فارق النوم عيونهم ، وهم يدققون في قصائد المتنبي ، ويتأملون ألفاظها ومعانيها ، ويفكرون في مقاصدها وأغراضها . وقد جاءت جملة (ويسهر الخلق) معطوفة بالواو على جملة (أنام ملئ جفوني) وذلك لما بينهما من التناسب ، فالأولى خبرية لفظًا ومعنى ، والثانية كذلك ، وهذا ما يسميه البلاغيون الوصل للتوسط بين الكمالين .

ويأتي الفعل المضارع في قوله : (ويختصم) ؛ ليرسم صورةً من مجالس الأدباء والعلماء ، الذين يتدارسون شعر المتنبي ، فمجالسهم عند دراسة هذا الشعر ساخنة ومليئة بالنقاش ، والحوار ، والجدل ، وكل هذا يدل على ثراء المادة الشعرية في شعر المتنبي . ويبدو أن المتنبي كان على دراية تامة بشعره حين قال هذا الشطر من البيت : (ويسهر الخلق جرّاها ويختصم) ، فمن " الذائع المشهور أن الرجل قد اشتدت من حوله الخصومة ، وثار من أجله الجدل ، ودارت في ميادين أشعاره المعارك ، وتكاثرت الدراسات التي تناولته بالنقد والفحص تكاثرًا عظيمًا منذ القرن الرابع الهجري "[٤] .

ومما جاء من حديث المتنبي عن فصاحته ،وبلاغته قوله[٥] :

وما الدَّهْرُ إلا مِنْ رُواةِ قصــــائِدي ... إذا قُلتُ شِعرًا أصْبَحَ الدَّهرُ مُنشِـدَا
فَسَارَ بِهِ مَنْ لا يَسِــيرُ مُشَــمِّرًا ... وَغَنَّى بهِ مَــنْ لا يُغَنِّي مُغَــرِّدَا
أجِــزْنِي إذا أُنْشِـدْتَ شِعرًا فإنّمَا ... بشِعرِي أتَاكَ المادِحــونْ مُـرَدَّدَا
وَدَعْ كُلَّ صَوْتٍ غَيرَ صَـوْتي فإنَّنِي ... أنَا الطَّائِرُ المَحكي وَالآخَرُ الصَّدَى

فإذا كان المتنبي في الأبيات السابقة ، جعل الأعمى ينظر إلى شعره ويبصره ، والأصم يسمعه ، فإنه هنا ينهج نفس المسلك ، فقد جعل الدهر يردد شعره ، والكسول تحركه أنغام أبياته ، وتبث فيه النشاط ،والذي لا يعرف الغناء يجد نفسه مغنيًا ، ومرددًا لأشعار المتنبي .

---

(١) اللامع العزيزي ١ / ١٩٤
(٢) دلائل الإعجاز ٢٢٦
(٣) ينظر التبيان في شرح الديوان لأبي البقاء العكبري ت د / كمال طالب ، ٣ / ٣٨٨ منشورات محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان ط ١أولى ١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٧ م
(٤) التصوير البياني في شعر المتنبي د / الوصيف هلال الوصيف ص ٤ ط مكتبة وهبه ١٤٢٦ هـ ـ ٢٠٠٦ م
(٥) الديوان ٣٧٣

وقد جاءت هذه الأبيات في قصيدة يمدح بها المتنبي سيف الدولة ، وقد بدأها بقوله :

لكل امرئٍ مِنْ دَهْرِهِ ما تَعَوّدَا وعادَةُ سيفِ الدولةِ الطعنُ في العدا

ومع أن المتنبي هنا في هذه القصيدة يمدح سيف الدولة ، إلا أنه ينتقل من مدحه إلى مدح نفسه وشعره، و يسلط الضوء على الحديث عن شعره كما فعل في الأبيات السابقة مما يجعلني أقول : إن محاولة المتنبي إظهار بلاغته ، وفصاحته ، وموهبته ، في مجلس سيف الدولة تعد ظاهرة في شعره ،والسر في ذلك هو كثرة المحاولات من الحاقدين على المتنبي للطعن في شعره ، خاصة في مجلس سيف الدولة . وأول ما يطالعك من الأساليب البلاغية في الأبيات هو أسلوب القصر في قوله : (وما الدهر إلا من رواة قصائدي) ، فقد قصر المتنبي مهمة الدهر على رواية شعره ، وهو من قصر الموصوف على الصفة قصرًا حقيقيًا ادعائيًا ، لعموم النفي لكل الصفات غير الصفة المذكورة بعد الاستثناء ، وعدم مطابقة الكلام للواقع الخارجي . وقد استخدم أسلوب النفي والاستثناء ؛ لأنه يعلم أن عددًا كبيرًا من الحاقدين الذين يضمهم مجلس سيف الدولة يشككون في مقدرته الشعرية ، كما أنه يعلم أن سيف الدولة نفسه يتأثر بكلام هؤلاء الوشاة الذين يحاولون إفساد العلاقة بينه وبين المتنبي ، فأراد المتنبي بهذا الأسلوب أن يؤكد قوة شعره ، وفصاحته ، وبلاغته ، وتردده على كل الألسنة ؛ ليرد بذلك التأكيد على طعن الطاعنين ، وليزيل الشك الذي يمكن أن يعتري قلب سيف الدولة نتيجة لكثرة الواشين ، والحاقدين الذين يمتلئ بهم مجلس سيف الدولة . فاستخدام أسلوب النفي والاستثناء جاء مناسبًا للموقف والمقام ، فالمتنبي في مقام شكٍ وإنكار، والنفي والاستثناء من أنجح الأساليب في هذا المقام ، يقول الإمام عبد القاهر : " وأما الخبر بالنفي والإثبات نحو قولك : ما هذا إلا كذا ، وإن هو إلا كذا ، فيكون لأمر ينكره المخاطب ويشك فيه . فإذا قلت : ما هو إلا مصيب أو : ما هو إلا مخطئ ، قلته لمن يدفع أن يكون الأمر على ما قلت ، وإذا رأيت شخصًا من بعيد ، فقلت : ما هو إلا زيد ، لم تقله إلا وصاحبك يتوهم أنه ليس بزيد ، وأنه إنسان آخر ، ويجد في الإنكار أن يكون زيدًا "[١] .

وقد بالغ المتنبي عندما جعل الدهر واحدًا من رواة قصائده وهي مبالغة مقبولة في مقامها ؛ لأن المقام استدعى من المتنبي حشد كل الطاقات البلاغية للرد على الطعن والإنكار الموجه إلى شعره، فالمتنبي بهذه المبالغة يؤكد لسيف الدولة قوة شعره ، وعلو مرتبته في البلاغة ، والفصاحة ، وشيوعه وانتشاره، فهو لكثرة شيوعه وانتشاره على ألسنة الناس ، أصبح وكأن الدهر هو الذي يردده وينشده . وفي كلام بعض شُرّاح الديوان ما يشير إلى أن في قوله : (وما الدهر إلا من رواة قصائدي) مجازًا مرسلاً، حيث عبر بالدهر وأراد أهل الدهر ، يقول العكبري " المعنى : إن أهل الدهر يروون شعري ، وأخرج اللفظ على الدهر تعظيمًا لشعره ، والمراد أهل الدهر "[٢] . وأرى أن حمل لفظ الدهر على حقيقته أبلغ في مقام الرد على الطاعنين في شعر المتنبي ؛ وذلك لما فيه من المبالغة في جمال هذا الشعر وشيوعه وانتشاره . وقد جاء الشطر الثاني : (إذا قلت شعرًا أصبح الدهر منشدا) مفصولاً عن الشطر الأول ، وهو قوله : (وما الدهر إلا من رواة قصائدي) ؛ لأنه تأكيد له ، فالوصل بينهما أقوى من الوصل بحروف العطف ، لما بينهما من كمال الاتصال ، وفي مثل هذا الموضع من الفصل يقول الإمام عبد القاهر " واعلم أنه كما كان في الأسماء ما يصله معناه بالاسم قبله ، فيستغني بصلة معناه له عن واصل يصله ، ورابط يربطه ، وذلك كالصفة التي لا تحتاج في اتصالها بالموصوف إلى شيء يصلها به ، وكالتأكيد الذي لا يفتقر كذلك إلى ما يصله بالمؤكَّد كذلك يكون في الجمل ما تتصل من ذات نفسها بالتي قبلها ، وتستغني بربط معناها لها عن حرف عطف يربطها ، وهي كل جملة كانت مؤكدة للتي قبلها ، ومبينة لها "[٣]

وتجد روعة التضاد وجماله بين قوله : (فسار) و (من لا يسير) ، وبين قوله : (فغنى) و

---

(١) دلائل الإعجاز تأليف الإمام عبد القاهر الجرجاني ت / محمود محمد شاكر ص ٣٢٣ مطبعة المدني ـ دار المدني بجدة ط ٣ ١٤١٣ هـ ـ ١٩٩٢م .

(٢) ينظر التبيان ١ / ٢٩٥ .

(٣) دلائل الإعجاز ٢٢٦

(من لا يغنى) ، وهذا التضاد يعكس تغير الأحوال وتحولها ، وسيرها على عكس سجيتها عند سماع شعر المتنبي ، فالكسول الذي من سجيته الخمول ، وقلة الحركة يسير نشيطًا مرددًا شعر المتنبي ، والذي لا يعرف الغناء ، ولا يحبه عاشق للتغني بأبيات المتنبي وقصائده ، وكل ذلك يصور قوة تأثير شعر المتنبي على سامعه ، ومتلقيه ، ومنشده . وإذا كان للتضاد أثرٌ في إظهار جمال هذا الشعر، فإن الحال ـ أيضًا ـ تتكاتف داخل البيت مع أسلوب التضاد في إبراز جمال هذا الشعر ، وأثره ، وذلك في قوله في الشطر الأول : (مشمرا) ، وقوله في الشطر الثاني : (مغردا)، فإذا كانت الحال تأتي لوصف صاحبها، فإن لفظ (مشمرا) جاء ليبين هيئة الكسول بعد سماعه لشعر المتنبي ، وإذا كان التضاد قد أثبت له السير بعد قلة الحركة في قوله :(فسار به من لا يسير) فإن الحال في قوله:(مشمرا) أضفت على هذا السير سرعة ، ونشاطًا ،وهمَّة . وإذا كان التضاد قد أثبت الغناء للذي لا يعرفه في قوله : (فغنى به من لا يغني) فإن الحال في قوله : (مغردا) قد أضفت على الغناء صفة الجمال ، فقد انتقل مردد شعر المتنبي من جهله بالغناء إلى صاحب صوت جميل يشبه أصوات الطيور في تغريدها . وبعد أن أظهر المتنبي جمال شعره ، وقوة تأثيره ، وسرعة ذيوعه وانتشاره ، هاهو يتوجه بالخطاب إلى سيف الدولة في قوله :

أجـــزني إذا أنشدت شعرًا فإنما بشعري أتاك المادحـون مـــرددا
ودع كل صوتٍ غير صوتي فإنني أنا الطائر المحكي والآخر الصدى .

وقد جاء هذا البيت (اجزني ... إلخ) مفصولاً عمّا قبله لكمال الانقطاع ، فهذا البيت بدأ بالأسلوب الإنشائي في اللفظ والمعنى ، وما قبله كان خبرًا لفظًا ومعنى ، فوصل الانفصال بين البيتين إلى غايته .
وقد بدأ خطابه لسيف الدولة بهذا الأمر (أجزني) ولو كان هذا الأمر موجهًا لسيف الدولة من غير المتنبي لقلت : إن الأمر هنا للدعاء ، فهو خارج عن حقيقته ؛ لأنه من الأدنى إلى الأعلى ، ولكنَّ الأمر مع المتنبي يجعلني أقول:إن الأمر هنا جاء على حقيقته التي هي طلب الفعل على جهة الاستعلاء[١] ؛ لأن المتنبي بكبريائه ، وغروره يرى أنه أعلى مكانة من الملك بدليل قوله :

تَغرَّبَ لا مُسْتعْظِمًا غَير نَفْسِهِ وَلا قابلاً إلاَّ لخالِقِهِ حُكْمَا[٢]

فالمتنبي يرى أنه بهذا الأمر (أجزني) لا يطلب إحسانا ولا تفضلا ، وإنما يطلب حقًا له مقابل إبداعه ، وابتكاره للمعاني التي يُمتدح بها سيف الدولة .
هذا وقد رأى بعض الباحثين أن الأمر هنا للدعاء ، وذلك في قوله : " الشاعر يخاطب سيده وأميره ، إذًا المسافة بين قدري الرجلين شاسعة وبعيدة ، واحد ملك وأمير ، والآخر من عبيده ورعاياه ، فهل يصح أن يكون الأمر هنا على حقيقته ؟ أم أنه يتجاوزها ، ويخرج عنها ؛ ليؤدي غرضًا آخر يُفهم بنصرة القرائن ، والأحوال ؟ الحق : أن المقصود بالأمر هنا هو الدعاء ، فالشاعر هنا يخاطب أميره خطاب الضارع المتوسل ، لا خطاب الآمر المتحكم "[٣] هذا هو رأي الباحث ، لكني أقول له : إن شخصية المتنبي لا تقبل التوسل والتضرع ؛ لأن الشموخ والكبرياء من أبرز ملامح شخصية هذا الرجل ، فحمل الأمر على حقيقته أولى في نظري من حمله على الدعاء ، ويمكن أن يكون مقبولاً
ـ أيضًا ـ إذا قيل : إن الأمر هنا للالتماس ؛ لأن المتنبي على أقل الأشياء يرى نفسه كفئًا ، وندًا لسيف الدولة ، ولا يرى نفسه أقل من ذلك . ويأتي التقييد بالشرط في (إذا أنشدت شعرًا) ؛ للدلالة على أن المتنبي لا يطلب مطلق العطاء ، وإنما يطلب عطاءً مقابل عمل في الأصل هو عمله ، وإن كان يقوم به غيره . ولما كان سيف الدولة ملكًا ، والملك تتهافت الشعراء على مدحه ، استخدم المتنبي أداة الشرط (إذا) الدالة على تحقق هذا الإنشاد ؛ لأن إذا تستخدم في الأمر المحقق المجزوم بوقوعه[٤] ، ومن هنا

---

(١) ينظر الإيضاح ١ / ١٤١
(٢) الديوان ١٧٤
(٣) التصوير البياني في شعر المتنبي ص ٧١
(٤) ينظر الإيضاح ص ١٧٨

استخدمها القرآن الكريم في قوله تعالى { إذا جاء نصر الله والفتح [١]} ؛ لأن مجيء النصر كان محققًا لا شك فيه .

وقد جاء الفعل في قوله : (أُنشدت شعرًا) مبنيًا للمجهول ، فقال : (أُنشدت)، ولم يقل : أنشدك الشعراء ؛ لأن المتنبي لا يعترف بإطلاق هذا اللفظ ـ أقصد لفظ الشعراء ـ على هؤلاء الذين يرددون شعره ، هذا بالإضافة إلى ما في حذف الفاعل من العناية بالمفعول ، فالمتنبي يريد أن يسلط الضوء على المفعول به ، وهو الشعر ، لأنه عمله الذي يردده غيره ، وينسبه إلى نفسه .

ومن أجل إظهار عظمة هذا الشعر ، وبيان قيمته جاء التنكير في قوله : (شعرًا) ليبين أنه شعرٌ عظيمٌ جدير بالعطاء والجائزة التي طلبها المتنبي بقوله : (أجزني).

ويأتي التعليل في قوله : (فإنما بشعري أتاك المادحون مرددا) ليدل على أحقية المتنبي في طلبه ، فهذه الجملة بمثابة العلة لطلب المتنبي الجائزة على إنشاد الشعراء الشعر عند سيف الدولة ، فالفاء هنا للتعليل ؛ لأن " الكلام لم يبنَ على أساس أن تكون الجملة الثانية متولدة من الجملة الأولى ، وموصولة بها بهذه الرابطة ...،إنما هي مرتبطة بها بالفاء التي تعطفها عليها عطف العلة على المعلول، وكأن هنا كلامين متميزين أحدهما علة للآخر ، قامت الفاء بينهما مقام العروة الخارجية "[٢] .

وقد استخدم المتنبي (إنما) في قوله : (فإنما بشعري أتاك المادحون) ؛ للدلالة على أن ترديد الشعراء ، وسرقتهم لشعر المتنبي أمر معلوم لا يخفى على أحد حتى على سيف الدولة نفسه ، وكأن المتنبي باستخدامه لـ (إنما) هنا في هذا المقام يعرض بتجاهل سيف الدولة للشعراء الذين ينشدون شعر المتنبي ، وينسبونه إلى أنفسهم ، مع أنه يعلم علمًا لا شك فيه أن الذي ينشدونه هو شعر المتنبي .

إذًا فقد استخدم المتنبي (إنما) لما فيها من معنى العلم بالشيء، والتعريض ، يقول الإمام عبد القاهر " اعلم أن موضوع (إنما) على أن تجيء لخبر لا يجهله المخاطب ، ولا يدفع صحته ، أو لما ينزل هذه المنزلة "[٣] ، ثم يقول : " اعلم أنك إذا استقريت وجدتها أقوى ما تكون ، وأعلق ما ترى بالقلب إذا كان لا يراد بالكلام بعدها نفس معناه ، ولكن التعريض بأمر هو مقتضاه "[٤] ويأتي التقديم في قوله : (بشعري أتاك المادحون) ليتضافر مع النظم في تأكيد سرقة الشعراء ، وترديدهم لشعر المتنبي ،وبيان عظمة هذا الشعر الذي لم يجد الشعراء أفصح منه ، ولا أبلغ ، فأخذوا يرددونه ، ويقصرون ترديدهم عليه ، فمدحهم لسيف الدولة مقصور على إنشاد شعر المتنبي ، وليس معهم شيء من إبداعهم ، ولو بيتًا واحدا . يقول أستاذنا الدكتور أبو موسى " فالمقصور عليه هنا هو قوله (بشعري) ؛ لأنه أراد أن المادحين ما أتوك إلا بشعري ، فقد احتوى كل فنون المديح ، لم يدع منقبة يحوم حولها خيال شاعر إلا صاغها لك ، فإذا ما جاء الشعراء لم يجدوا شيئا إلا ما قلته "[٥]، وقد اجتمع في قوله : (فإنما بشعري أتاك المادحون) أسلوبان من أساليب القصر : **الأول** : التقديم في قوله : (بشعري أتاك المادحون) حيث قُدم الجار والمجرور (بشعري) على الفعل وفاعله ، **والثاني** : (إنما) ، وفي هذه الحالة يكون القصر مستفادًا من التقديم ؛ لأن تقديم المفعول مع إنما يلغي دلالتها على القصر ، ويجعلها متمحضة للتوكيد[٦] ،والقصر هنا من قبيل قصر الصفة على الموصوف ، وهو قصر حقيقي ادعائي ، وقلت حقيقيًا؛ لأن النفي فيه عام يشمل كل ما عدا المقصور عليه ، فأصل الكلام ما أتاك المادحون إلا بشعري ، وقلت ادعائيًا ؛ لأن الشعراء لا بد أن يكون لهم في مدح سيف الدولة شعر من إبداعهم ، ولو قليلاً ، وعلى هذا فالقصر غير مطابق للواقع. ويمكن أن يكون القصر هنا إضافيا على اعتبار أن الكلام موجه إلى سيف الدولة الذي يعتقد أن الذي ينشده الشعراء في مجلسه من ابتكارهم وإبداعهم ، وهو عكس

---

(١) الآية { ١ } سورة النصر

(٢) دلالات التراكيب د/ محمد محمد أبو موسى ص ٣١٩ ، ٣٢٠ ـ مكتبة وهبة ، ط ٢ ، ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٧م .

(٣) دلائل الإعجاز ص ٣٣٠.

(٤) المصدر نفسه ص ٣٥٤ .

(٥) ينظر دلالات التراكيب ص ١٦٧ ، ١٦٨

(٦) المصدر نفسه ١٦٩ .

ما يقوله المتنبي . وقد أطلق المتنبي لفظ (المادحون) على الذين يرددون شعره ، ولم يطلق عليهم شعراء ؛ لأنه لا يعترف بشعرهم ، فشعرهم في نظره ليس شعرًا وهم ليسوا شعراء ، وإنما هم مجرد سارقين ، ومرددين لأقواله .

وقد جاء هذا البيت :(ودع كل صوت .. إلخ) معطوفًا بالواو على البيت السابق للتناسب بين البيتين في الإنشائية ، فالبيت الأول بدأ بأسلوب الأمر (أجزني) والبيت الثاني بدأ بأسلوب الأمر (ودع) ، فبين البيتين نوع من الوصل يسميه البلاغيون التوسط بين الكمالين ، ومن محسنات الوصل هنا اتفاق الجملتين في الفعلية ، واتفاق الفعلين في الأمر .

وتظهر الجرأة العالية للمتنبي في هذا الأمر الموجه لسيف الدولة في قوله : (ودع كل صوت غير صوتي) فهذا الأمر يدل على أن المتنبي قد خالف الشعراء في منهجهم عند مخاطبة الملوك ،فليس في خطابه نبرة التذلل والخضوع ، وإنما هي نبرة التعالي والكبرياء ، نشعر معها بأنه لا يخاطب ملكًا ، وإنما يخاطب صديقًا ، ومن هنا جعل النقاد من سمات شعر المتنبي عند مخاطبة الملوك ، أنه يخاطب الملك مخاطبة الصديق للصديق ، والند للند . وقد جاء الأمر (دع) مسلطًا على العموم في قوله : (كل صوت) وهذا يدل على أن المتنبي كان لا يعترف بشاعر آخر غيره ، بل إنه كان يحقر كل شاعر غيره ، يدل على ذلك قوله في موضع آخر[١] :

أفي كل يوْمٍ تحتَ ضِبْني شُوَيْعِرٌ ضَعيفٌ يُقاويني قَصِيرٌ يُطاوِلُ

وقوله[٢] :

خَلِيليَّ إنّي لا أرَى غيرَ شَاعِرٍ فَلِمْ مِنهُمُ الدَّعْوَى وَمِنِّي القَصَائدُ

فالمتنبي لا يرى إلا شاعرًا واحدًا هو المتنبي ، وما سواه من الشعراء ، فهو حقير ضعيف لا يعتد به ، وهذا التعميم في قوله : (كل صوت) يشير " إلى تلك المزاحمة التي فرضت نفسها على الشاعر ، وإلى ضراوتها بينه وبين شعراء عصره ، تلك الصلة التي أقامت المفارقة بين الصوت والصدى ، والأصل والصورة ، والحاكي والمحكي ".[٣] وبعد هذا العموم يأتي الاستثناء في قوله : (غير صوتي) ليدلك على تفرد المتنبي في الساحة الشعرية ، فهو صوت شعري مميّز ، لا يشبهه أحد، فهو الذي يجب أن يسمعه سيف الدولة ، وأن يترك كل ما عداه .

وإشارة لهذا التفرّد ، والتميّز عن كل شعراء عصره جاء المسند إليه معرفًا بالضمير (أنا)وجاء المسند معرفًا بـ (ال) في قوله (أنا الطائر) وفي رواية (أنا الصائح) ثم عقد مقارنة بينه وبين الآخر في قوله : (والآخر الصدى) وشبّه نفسه بطائر يغرد بأعلى صوته في صحراء شاسعة ؛ لأن هذا الصوت لا يتردد إلا في هذا المكان ، أو في المكان المغلق ، ثم شبه غيره من الشعراء ـ والذي عناه بقوله :(الآخر) ـ بصدي الصوت الذي يردد ما يقوله الطائر ، وهذا التشبيه يؤكد به المتنبي ما قاله في البيت السابق (فإنما بشعري أتاك المادحون مرددا) ، فالشعراء يرددون أشعار المتنبي دون تبديل ، أو تغيير ، أو إضافة ؛ لأن صدى الصوت لا يضيف شيئًا إلى ما غرد به الطائر ، وإنما يردد نفس تغريده ، هذا بالإضافة إلى ما في هذا التشبيه من الدلالة على السبق للطائر، هذا السبق والابتكار الذي يريد أن ينسبه المتنبي لنفسه . ورواية (أنا الطائر) أبلغ من (أنا الصائح) لما فيها من الدلالة على السبق مع الرفعة والعلو ، بخلاف الصائح فليس فيه إلا مجرد الدلالة على السبق في الصوت ، والأنسب لمقصود الشاعر ومراده ما يدل على السبق ،والرفعة معًا .

<u>ومما جاء من حديث المتنبي عن موهبته وشعره قوله</u>[٤] :

زَعَمْتَ أنّك تَنفي الظّنّ عَن أدَبي وأنتَ أعظمُ أهلِ الأرْضِ مِقدارَا
إنّي أنا الذّهَبُ المعرُوفُ مَخْبَرُهُ يزيـدُ في السّبكِ للدِّينار دينَارَا

---

(١) الديوان ٣٧٧
(٢) الديوان ٣١٩
(٣) التصوير البياني في شعر المتنبي ص ٧٣
(٤) الديوان ص ١٦٢

فالمتنبي هنا يخاطب بدر بن عمّار بن إسماعيل، وذلك عندما اتهم بعض الناس المتنبي بأنه لا يقدر على ارتجال الشعر ، وأراد بدر بن عمّار أن ينفي هذه التهمة عن المتنبي .

وقد كان المتنبي دقيقًا في استخدامه لكلمة الظن في قوله : (تنفي الظن عن أدبي) فهو بهذه الكلمة ينفي صحة الاتهامات الموجهة إليه ، ويثبت حق بدر بن عمّار في نفيها ؛ لأنها مجرد ظنون وشكوك بعيدة عن الحجة والبرهان .

وقد جاء البيت الثاني الذي يتحدث فيه المتنبي عن ذاته مفصولاً عن الأول ، مع وجود المسوغ للعطف ؛ للاتحاد في الخبرية لفظًا ومعنى ، وهذا يدل على شدة الاعتداد بالنفس والاعتزاز بها ، فهذه النفس لا تريد أن يشاركها أحد آخر حتى في الحديث عنها ، ولو كان هذا الآخر ملكًا أو أميرًا .

ولما كان المقام مقام دفاع عن النفس استخدم المتنبي أسلوب التوكيد في قوله : (إني أنا الذهب المعروف مخبره) ، فهو بهذا التأكيد يريد أن يدفع بقوة كل الاتهامات التي وجهت إلى شعره وأدبه ، ويبدو أنها كانت اتهامات قوية ومؤثرة استدعت من المتنبي أن يستخدم معها هذا الأسلوب القوي المحمل بأسلوب التوكيد .

وتدعيمًا لإثبات الذات ،ونفي التهمة عن الأدب تكرر ضمير الذات في قوله : (إني أنا) ففي تكرار الضمير هنا إثبات قوي للذات ، وتأكيد لحضورها ، واعتزازها بنفسها ،هذا الاعتزاز الذي جعله يتحدث عن النفس بهذه القوة أمام بدر بن عمّار الذي يدافع عنه ، ويدفع عنه التهم ، فهو لم يستطرد في مدح بدر ، وإنما استطرد في مدح نفسه ، واكتفى في مدح بدر بن عمار بهذه الجملة القصيرة :(وأنت أعظم أهل الأرض مقدارا) ، وفي رواية (وأنت أعظم أهل العصر مقدارا) . وهذه الرواية الثانية أبلغ ، لأن الرواية الأولى وإن كانت أقوى في المدح إلا أنها تنافي العقيدة ؛ لأن أعظم أهل الأرض هو رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم صحابته ، وليس بدر بن عمار .

وقد لجأ المتنبي في الدفاع عن أدبه وشعره إلى الصورة البيانية المتمثلة في أسلوب التشبيه في قوله : (إني أنا الذهب) ، فقد شبه نفسه بالذهب وبالغ في التشبيه ، فلم يقل : إني كالذهب ، أو أنا كالذهب ، وإنما حذف أداة التشبيه ؛ ليتناسى التشبيه ويتحدث عن نفسه وكأنه هو الذهب نفسه .

والتشبيه بالذهب يعكس عِدّة صفات في المتنبي ، فالذهب معروف بقيمته العالية وسط المعادن ، ومعروف ـ أيضًا ـ بلمعانه وبريقه ، بالإضافة إلى حب الناس لاقتنائه ، وافتتانهم به ، وتلهُّفهم عليه ، كل هذه المعاني التي في المشبه به أرادها المتنبي لذاته وأدبه . ولم يكتف المتنبي بتشبيه نفسه بالذهب ، بل إنه وصف الذهب بأنه معروف المخبر ، وكأن المتنبي بهذا الوصف يشير إلى شهرته وذيوع صيته ، وبلوغ أدبه إلى كل الآفاق . وبعد أن وصف الذهب بأنه معروف المخبر رجع فأتى بنوع فريد من الذهب ليس ككل الذهب ، بل إنه يكاد يكون نوعًا خاصًا من الذهب غير معروف لمعظم الناس ، وذلك في قوله : (يزيد في السبك للدينار دينارا)[١] . وقد جاءت هذه الجملة مفصولة عمّا قبلها ؛ لأنها مبينة وموضحة لها ، فالفصل هنا لكمال الاتصال ، فهذه الجملة منزلة مما قبلها منزلة نفسها ، فالوصل هنا أقوى من الوصل بحروف العطف ، فترك العطف هنا كما قال الإمام عبد القاهر للاتصال إلى الغاية[٢].

وقد يظن الناظر في البيت أن المتنبي قد ناقض نفسه حين وصف الذهب أولاً بالمعروف ، ثم جاء بنوع من الذهب غير معروف في قوله : (يزيد في السبك للدينار دينارا). والمتأمل في سياق القصيدة يتضح له أن المتنبي لم يناقض نفسه ؛ لأنه أراد من الذهب المعروف الشهرة وذيوع الصيت ، وأراد من النوع الخاص من الذهب التفرد وعلو القيمة ، وندرة الوجود ، وكل هذه المعاني تؤدي ما قصده من إثبات ذاته وتفوّقه في أدبه وشعره على أقرانه . ، ومما أخذوه على المتنبي هنا أنه لا يوجد ذهب يزيد في السبك [٣]. ورد ذلك بأنه أراد من " الذهب الإبريز الخالص إذا اختبر بالسبك ، فإن ما كان منه يظن بادئ ذي بدء أنه يساوي دينارًا قد تزيد قيمته دينارًا آخر "[٤] .

---

(١) ينظر معجز أحمد ٢٨١

(٢) ينظر دلائل الإعجاز ٢٤٣

(٣) التبيان في شرح الديوان ٢ / ١٣٧

(٤) شرح ديوان المتنبي لعبد الرحمن البرقوقي ٢ /٢٤٤ ط دار الكتاب العربي ـ بيروت لبنان ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠ م .

ومن خلال ما سبق من حديث المتنبي عن فصاحته وبلاغته يستطيع البحث أن يرصد الآتي :

- أكثر حديث المتنبي عن فصاحته وبلاغته كان في مجلس سيف الدولة ، وهذا يرجع إلى كثرة الخصومات التي كانت بين المتنبي وشعراء عصره المقربين لسيف الدولة ، وإلى المزاحمة الشديدة بينه وبين هؤلاء الشعراء من أجل التقرب إلى هذا الملك ، والتربع على عرش مدحه .
- كثيرًا ما يستخدم المتنبي عند الحديث عن فصاحته وبلاغته في شعره ضمير النفس (أنا) ، وهذا يشير إلى تلك المزاحمة من الشعراء التي فرضت نفسها على الشاعر، فالمتنبي وسط هذا الزحام أراد أن يبرز تفرده في شعره ، وتميزه فيه ، فاستدعى ذلك كثرة استخدام الضمير(أنا) لما فيه من الدلالة على هذا التفرد والتميز.
- يظهر في حديث المتنبي عن فصاحته وبلاغته نبرة الاعتداد الزائد بالنفس ، والتحقير لكل ما حوله من الشعراء ، فقد كان لا يرى شاعرًا إلا نفسه ، فهو الصائح المحكي ، والآخر الصدى ، وغيره من الشعراء في نظره شويعر صغير كما قال : (أفي كل يوم تحت ضبني شويعر) .
- من الأساليب المبتكرة في حديث المتنبي عن فصاحته وبلاغته في شعره أسلوب قلب حقائق الأشياء ، فقد جعل الأعمى ينظر إلى شعره في قوله : (أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي) وجعل الأصم يسمعه في قوله : (وأسمعت كلماتي من به صمم) ، وجعل الكسول نشيطًا مشمرًا في قوله : (فسار به من لا يسير مشمرًا) ، والذي لا يعرف الغناء أصبح مغردًا في قوله : (وغنَّى به مـــن لا يغني مغـــــردا) وهذا الأسلوب قد استخدمه المتنبي لإبراز قوة تأثير شعره على الناس .

ثانيًا : بلاغة المتنبي في وصفه لشجاعته : -

الشجاعة هيئة حاصلة للقوة العصبية بين التهور والجبن بها يقدم على أمور ينبغي أن يقدم عليها كالقتال مع الكفار ، ما لم يزد على ضعف المسلمين[١] .

ومن يقرأ شعر المتنبي لا يجد نفسه أمام شاعر من أفضل شعراء العربية فحسب ، بل يجد نفسه أمام فارس من فرسان المعارك وبطل من أبطالها ، لا يجد متعته إلا في خوض مواطن الهلاك .

والناظر في شعره يجده يفرد مساحة كبيره للحديث عن القتال، وخوضه للمعارك الحربية ، وتعرضه للسهام والرماح ، وملاقاته للموت دون خوف أو تراجع .

وقد وصف المتنبي شجاعته في تلك المعارك التي تحدث عنها ، وتناولها في شعره وصفًا يجعلنا نرى فيه صورة البطل العربي الذي يحتذي به ، والذي يُعد رمزًا للشجاعة والبطولة .

ومما جاء في شجاعته وبطولته قوله [٢] :

جَفَتْني[٣] كأنّي لَستُ أَنْطقَ قَوْمِهـا — وأطعنَهم والشُّهبُ[٤] في صورةِ الدُّهمِ[٥]
يُحاذِرُني حَتْفي[٦] كأنّيَ حَتْفُهُ — وتَنْكُزُني[٧] الأفعى فيَقتُلُها سُمِّي
طِوالُ الرُّدَيْنِيّاتِ[٨] يَقْصِفُها دَمي — وبيضُ السُّرَيجيّاتِ[٩] يَقطَعُها لحمي.

فقد جاءت هذه الأبيات في قصيدة يمدح بها المتنبي الحسين بن إسحاق التنوخي بدأها بالحديث عن المحبوبة كعادة الشعر الجاهلي فقال :

مَلامي النّوى في ظُلْمِها غايةُ الظّلمِ — لَعَلّ بها مِثْلَ الذي بي من السُّقْمِ

وقد جمع في هذه الأبيات في الحديث بين فصاحته وشجاعته ، إلا أنه أسهب في الحديث عن شجاعته وأوجز في الحديث عن فصاحته ، لأن المرأة العربية كانت تميل إلى الرجل الشجاع الفصيح[١٠]إلا أن ميلها إلى الرجل الشجاع أكثر ؛ لأنها تضمن به الحماية .

وأول ما يكشف عن شجاعة المتنبي في هذه الأبيات صيغة التفضيل في قوله : (وأطعنهم) هذه الصيغة التي جاءت معطوفة على صيغة التفضيل الأولى التي كشفت عن فصاحة المتنبي وذلك في قوله : (أنطق قومها) ٠

وهذا التفضيل يدل على أن الفعل الماضي (جفتني) الذي جاء في مطلع البيت قصد منه المتنبي إظهار مخالفة المرأة وخيانتها للعادات والتقاليد والعرف السائد عند نساء عصرها ، لأن المتنبي قد امتلك صفتين من الصفات التي ترغب المرأة العربية[١١] فيها ، فكان ذلك أدعى إلى الميل والوصل لا إلى البعد والقطيعة ، فالجفاء هنا جاء مخالفًا للعرف والعادة . كما أن التفضيل في البيت يدل على أن المتنبي ليس مجرد فصيح أو شجاع بل إنه هو أفصح القوم وأشجعهم .

والمتنبي عندما عبر بلفظ الطعن في قوله : (وأطعنهم) قدم الشجاعة بدليلها ؛ فلم يقل : وأشجعهم ، وإنما قدم الدليل على هذه الشجاعة وهو كثرة الطعن ؛ لأن الإنسان يمكن أن يدعي الشجاعة

---

(١) التعريفات ١٣٠ ، ١٣١
(٢) الديوان ٨٠ ، ٨١
(٣) الجفاء : سوء العشرة، والتحامل عند الغضب ، والثورة على الجليس (ينظر تهذيب اللغة لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري ت محمد عوض مرعب ١١/ ١٤١ ط ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ٢٠٠١ م).
(٤) الشهب : الشهبة البياض الذي غلب على السواد (لسان العرب لابن منظور ١ / ٥٠٨)
(٥) الدهم : السواد ، والأدهم الأسود (اللسان ١٢ / ٢٠٩) .
(٦) الحتف : الموت (ينظر المحيط في اللغة لأبي القاسم إسماعيل بن العباس بن أحمد بن إدريس الطالقاني ت الشيخ محمد حسن آل ياسين ٣ / ٥٤ ط عالم الكتب ـ بيروت ط أولى ١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٤م .
(٧) نكزته الحية : لسعته بأنفها (لسان العرب لابن منظور ٦ / ٤٥٤٠ ط١ دار المعارف بدون تاريخ) .
(٨) الردينيات : ردينة : اسم امرأة ، والرماح الردينية منسوبة إليها (اللسان ١٣ / ١٧٨) .
(٩) السريجيات : ضرب من السيوف يعرف بالسريجيات ، (ينظر تهذيب اللغة ١٠ / ٣٠٨) .
(١٠) ينظر شرح ديوان المتنبي للبرقوقي ٤ / ١٦٩ .
(١١) ينظر التبيان ٤ / ٥١

ادعاءً نظريًا ، وليس معه الدليل والبرهان الذي يدل على صدق ادعائه ، لذا كان هذا التعبير أقوى في الدلالة على الشجاعة من لفظ الشجاعة نفسه ، لأن كثرة الطعن دليل عملي ، وبرهان مادي على الصفة المعنوية التي يريد أن يثبتها المتنبي لنفسه ، وهي الشجاعة ، فالطعن جاء كناية عن الشجاعة ، والكناية من سماتها تقديم الدعوى بدليلها . وفي مثل هذه الكناية يقول الإمام عبد القاهر :" إنهم يرومون وصف الرجل ومدحه ، وإثبات معنى من المعاني الشريفة له ، فيدعون التصريح بذلك ، ويكنون عن جعلها فيه بجعلها في شيء يشتمل عليه ، ويلتبس به ، ويتوصلون في الجملة إلى ما أرادوا من الإثبات ، لا من الجهة الظاهرة المعروفة ، بل من طريق يخفى ، ومسلك يدق "[١] .

ولما كان المتنبي في مقام الحديث عن شجاعته ، وبطولته ، وكان هذا المقام يحتاج إلى رصد الأدلة والبراهين ؛ لإثبات هذه الشجاعة ، وكان أسلوب الكناية من أنجح الأساليب في تقديم الدعوى بدليلها جاءت جملة الحال في قوله : (والشهب في صورة الدهم) كناية عن كثرة القتلى والجرحى ، وكثرة الدماء من أثر الطعن ، فكثرة الدماء التي جفّت حولت الخيول التي غلب لون بياضها لون سوادها إلى خيول سوداء لا يُرى فيها أثر البياض . ووسط هذه المعركة التي يكثر فيها الطعن ، ويكثر فيها الطاعنون ، وتتحول فيها ألوان الخيول من كثرة دماء القتلى والجرحى من البياض إلى السواد تجد المتنبي هو أشجع القوم وأكثرهم طعنًا ، وهذا ما دلَّ عليه أفعل التفضيل في قوله : (وأطعنهم) . وتجد المبالغة الخارجة عن الحد في هذا الإسناد في قوله : (يُحاذرني حتفي) ؟ فقد أسند الفعل (يحاذرني) إلى الحتف الذي هو الموت ، وهو إسناد مجازي؛ لأن الحتف لا يتصور منه الحذر، وإنما يكون سببًا في الحذر ، ففي الكلام ـ إذًا ـ مجاز عقلي علاقته السببية ، وهو مجاز يكشف به المتنبي عن فرط شجاعته، وبلوغها أقصى الغايات ، إلا أنه جاوز الحد ، وخرج عن المعقول ، وبالغ مبالغة غير مقبولة ، عندما جعل الموت الذي يفر منه الناس يحذره ويخافه .

ويتمادى المتنبي في مبالغته ؛ فيأتي بهذا التشبيه (يحاذرني حتفي كأني حتفه)، فقد شبه المتنبي نفسه بالموت ، وجعل من نفسه موتًا للموت ، فبدلاً من أن يحذر هو الموت ويخافه ، جعل الموت هو الذي يخاف منه ،وفي هذا مبالغة في وصف شجاعته،وهي ـ أيضًا ـ مبالغة خارجة عن العقل والمنطق.

وزيادة في المبالغة في التشبيه آثر المتنبي استخدام (كأن)أداة للتشبيه ، لما فيها من الدلالة على قوة الشبه ، ولما فيها من تقريب الأمر المستحيل ، وتصويره في صورة الممكن الجائز ، وفي هذا إظهار لقوة الشبه بين رؤية المتنبي في نظر العدو ، ورؤية الموت ، فالذي يقاتل المتنبي يرى الموت المحقق ، متجسدًا في المتنبي .

وتتوالى الصور البيانية الواحدة تلو الأخرى ؛ لترسم صورة الشجاعة والبطولة في أبهى وأقوى عروضها ، فتأتي الاستعارة في قوله : (وتنكزني الأفعى) لتصور العدو الذي يتجرأ على مواجهة المتنبي متناسيًا قوته ، وشجاعته بصورة الأفعى التي تلسعه ، وفي هذا إيماء بقوة العدو ، وشدة مكره وخداعه ، وكثرة إيذائه للآخرين ، مع سرعة انقضاضه . وقد جاءت هذه الجملة (وتنكزني الأفعى) معطوفة بالواو على جملة (يحاذرني حتفي) ؛ لما بين الجملتين من التوسط بين الكمالين ؛ لاتفاقهما في الخبرية لفظًا ومعنى .

وإذا كان المتنبي قد صور مقاتله بصورة الأفعى فإنه قد أثبت لنفسه لازمًا من لوازمها وهو السم ، فقال : (فيقتلها سمي) ، وهي استعارة مكنية يصور بها المتنبي شجاعته أمام قوة العدو ومكره .

إذًا فالصراع بين أفعتين : أفعة تصور عن طريق الاستعارة التصريحية قوة مَن يصارع المتنبي، وأفعة تصور قوة المتنبي عن طريق الاستعارة المكنية ، وينتهي هذا الصراع بين القوتين بتفوق الأفعى الثانية ، التي تمثل شخص المتنبي ، وكان سلاح المتنبي في هذا الصراع هو السم الذي تمتلكه الأفعى الأولى ، وبذلك يكون المتنبي قتل عدوه بنفس السلاح الذي يحاربه به ، وهذا ما صوَّرته ودلت عليه الاستعارة المكنية في قوله : (فيقتلها سمي) .

---

(١) دلائل الإعجاز ٣٠٦

فالقوة - إذًا - ليست في السلاح ، والتفوق ليس في العدة ، وإنما التفوق في الشجاعة والقوة ، والمهارة الحربية ، وهذا ما أوحى به عطف الاستعارة المكنية (فيقتلها سمي) على الاستعارة التصريحية في (وتنكزني الأفعى) .

وتلحظ جمال وروعة الفاء في (فيقتلها سمي) ،فالعطف بالفاء هنا يشير إلى سرعة إنهاء الصراع بين المتنبي وخصمه ، فالعدو مهما كانت قوته ، ومهما كان مكره ، وخداعه ، فإنه سُرعَان ما يخِر صريعًا ، وهذه السرعة في إنهاء الصراع تدل على كثرة القتلى الذين يلقون حتفهم على يد المتنبي داخل المعركة . هكذا كان المتنبي دقيقًا في استخدامه الفاء هنا ، لما فيها من معنى الترتيب مع السرعة(١).

ويضفى المتنبي على السياق مزيدًا من المبالغة ، فيأتي بمبالغة تصل بشجاعته ، وقوته إلى حد غير مألوف ، ولا معهود ، وذلك في قوله: (طوال الردينيات يقصفها دمي) وقوله: (وبيض السريجيات يقطعها لحمي)، فقد بالغ المتنبي حين جعل الرماح الطويلة تتكسر أمام دمه ، وحين جعل السيوف السريجية التي هي أقوى أنواع السيوف يقطعها لحمه ، وبذلك تحول دم المتنبي ولحمه إلى سهام حديدية صلبة أقوى في صلابتها من هذه الرماح الطويلة القوية ، وأقوى في صلابتها من هذه السيوف السريجية الصلبة .

وهذا التفوق في الصلابة والقوة للدم واللحم صنعته الاستعارة المكنية في قوله : (يقصفها دمي) ، وقوله :(يقطعها لحمي) ، فهذه الاستعارة جعلت الدم واللحم حديدًا أصلب من حديد الرماح والسيوف . وهذه الصورة الخيالية التي رسمها المتنبي للحمه ودمه تُصور شجاعة المتنبي في أقوى صورها ، وأبهى عروضها .

ويمكن أن يكون الكلام في قوله : (يقصفها دمي) و (يقطعها لحمي) من قبيل المجاز العقلي ، حيث أسند القصف إلى سببه وهو الدم ، والعصف إلى سببه وهو القطع ؛ لأن الدم سبب في تكسر الرماح ، واللحم سبب في تكسر السيوف ؛ لأن الإنسان يستخدم الرمح والسيف من أجل إراقة الدم ، وقطع اللحم .

وألفاظ الهلاك في الأبيات شائعة ، وكلها تتلاءم مع جو القتال ، وقوة الألفاظ ودلالتها تعكس قوة ، وشجاعة المتنبي ، فقد جعل الموت يحذره ويخشاه ، وليس هذا فحسب ، بل إنه خرج عن الحد في المبالغة ، وجعل من نفسه موتًا للموت ثم جعل له سمًا يقتل به الأفعى التي تواجهه ، ثم حول دمه ولحمه إلى أسلحة حديدية ، وأدوات حربية ، يقضي بها على الرماح الطويلة ، والسيوف الصلبة ، وكل هذه القوة التي رسمتها الألفاظ والعبارات تصور شجاعة المتنبي في أبهى صورها ، وأقوى عروضها .

<u>ومن حديث المتنبي عن شجاعته قوله(٢) :</u>

أمِثلي تأخُـذُ النّكَـبَاتُ(٣) مِنْهُ	**وَيَجزَعُ مِنْ مُلاقاةِ الحِمَـــامِ(٤)**
ولو بَرَزَ الزّمانُ إليّ شَخصــًا	**لخَضّبَ(٥) شعرَ مَفرقِهِ حُسـامي**
وما بَلَغَتْ مَشيئَتَهَا اللّيالـــي	**ولا سَــارَتْ وفي يَدِها زِمَـامِي**
إذا امتَلأتْ عُيُـونُ الخَيْـلِ مِني	**فَوَيْلٌ فـــي التّيَقّـــظِ والمَنَامِ**

---

(١) ينظر رصف المباني في شرح حروف المعاني للإمام أحمد بن عبد النور المالقي ، ت أحمد محمد الخراط - ص ٣٧٧ مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق(بدون تاريخ).

(٢) الديوان ص٥١

(٣) النكبة بالفتح : المصيبة ، ونكبه الدهر نكبًا : بلغ منه أو أصابه (القاموس المحيط لمحمد بن يعقوب الفيروزابادي ١ / ١٣٧٣ ط مؤسسة الرسالة - بيروت - لبنان

(٤) الحمام : الموت

(٥) قال الليث : خضب الرجل شيبه ، والخضاب الاسم ، وكل لون غير لونه حمرة فهو مخضوب (ينظر تهذيب اللغة ٧ / ٥٥)

فهذه الأبيات جاءت في قصيدة يرد فيها المتنبي على أبي عبد الله معاذ بن إسماعيل اللاذقي ، وكان قد لامه على تعرضه للحروب في الأسفار ، وتهوره فيها ، ومطلع هذه القصيدة قوله :

أبَا عَبْدِ الإلَهِ مُعاذُ إنّي خفِيٌّ عَنْكَ في الهَيْجا مَقامِي

وهذه الأبيات جاءت لتحمل الرد من خلال الحديث عن شجاعة المتنبي وحسن بلائه في الحروب .
وأول ما يُطالعك في هذه الأبيات هذا الاستفهام في قوله : (أمثلي تأخذ النكبات منه) وإذا كان الغرض من الاستفهام في الحقيقة طلب الفهم ، فإن الاستفهام هنا لا يمكن حمله على حقيقته ؛ لأن المتنبي لا يمكن أن يسأل غيره عن إمكان تأثير النكبات فيه ، ولا عن إمكان جزعه عند ملاقاة الموت ،فهو أدرى الناس بحاله ، ولكن المتنبي ينكر أن يكون بما يملكه من شجاعة ، وقوة وحسن بلاء في الحروب ممن تؤثر فيه نكبات الزمان ، أو يجزع عند ملاقاة الموت .
فالغرض من الاستفهام هنا الإنكار ، ويمكن أن يحمل على النفي على معنى مثلي لا تأخذ النكبات منه ، ولا يجزع من ملاقاة الحمام.
وقدم مثل هنا وهو لا يريد واحدًا غيره ، وإنما يقصد منها ما كان في شجاعته ، وجرأته ، وخبرته في المواجهات الحربية ، وفي مثل هذا الأسلوب يقول العلامة الخطيب : " ومما يرى تقديمه كاللازم لفظ (مثل) إذا استعمل كناية من غير تعريض ، كما في قولنا : مثلك لا يبخل ونحوه مما لا يراد بلفظ مثل غير ما أضيفت إليه ، ولكن أريد أن من كان على الصفة التي هو عليها كان من مقتضى القياس ، وموجب العرف أن يفعل ما ذكر أو لا يفعل "[١] والغرض من تقديم مثل هنا كما قال العلامة الخطيب هو تقوى الحكم[٢] .
وفي قوله : ولو برز الزمان ....إلخ تأكيد لمعنى البيت الأول ، فهذا البيت يؤكد عدم تأثر المتنبي بنكبات الزمان ، وعدم خوفه من ملاقاة الموت ، فهو يقول " الزمن الذي هو محل النكبات والنوائب لو كان شخصًا ثم برز إلى للحرب لخضبت شعر رأسه "[٣] .
وهي صورة مقترضة للزمان يعلم المتنبي أنها ممتنعة ومستحيلة ، لذا استخدم معها أداة الشرط (لو) التي هي عند النحويين حرف امتناع لامتناع[٤] ، فهي تفيد امتناع جواب الشرط لامتناع فعل الشرط. وفي قوله : (إلىّ) دلالة على أن المقصود بهذا البروز هو المتنبي وحده ، وهذا يحتاج من المتنبي إلى شجاعة عالية ، وقوة عاتية .
ويأتي جواب الشرط في قوله : (لخضب شعر مفرقه حسامي) ليظهر نتيجة الصراع الذي دار بين المتنبي والزمن ، وليبرز شجاعة المتنبي وتفوقه على الزمن الذي برز في صورة شخص قوي شرس يصارع المتنبي .
ولما جعل المتنبي الزمان شخصًا تناسى أنه الزمان وتحدث عنه وكأنه يتحدث عن شخص حقيقي فجعل له شعرًا ،وجعل له مفرقا ، وفي هذا مبالغة في قوة شجاعة المتنبي التي لا تبالي بالخصم مهما كانت قوته ، وسطوته ، فالزمان في نظر المتنبي كأنه شخص يقاتله ، لا يستطيع أن يتغلب عليه ، ولا يستطيع أن يهزمه ، بل الغلبة دائما تكون لصالح المتنبي .
والاستعارة في قوله : (لخضب شعر مفرقه حسامي) أظهرت الصورة المفترضة في صورة الواقع المشاهد الذي يجري على أرض المعركة ، وقرّبت المستحيل الممتنع وجعلته كأنه يدور على أرض الواقع ، وذلك من قوة أثر التخييل الذي أحدثته الاستعارة .

وللتقديم في قوله (لخضب شعر مفرقه حسامي) دور السحر في سرعة استحضار الخيال للصورة

---

(١) الإيضاح ١ / ٦٥
(٢) ينظر المصدر نفسه ١ / ٦٦
(٣) التبيان ٤ / ٤٦
(٤) ينظر مغني اللبيب عن كتب الأعاريب تأليف جمال الدين بن هشام الأنصاري ت / د/ مازن المبارك - محمد علي حمد الله ١ / ٣٣٧ ط دار الفكر - دمشق ط رقم ٦ ، وينظر سر صناعة الإعراب لأبي الفتح عثمان بن جني ت / حسن هنداوي ١ / ٣٠٦ ط دار القلم - دمشق ط ١ / ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥م .

المرسومة عن طريق الاستعارة ، فقد قدم المفعول به (شعر) وأخر الفاعل (حسامي) حتى تسلط العين أولاً على صورة الشعر الملطخ بالدماء ، فهو لا يريد أن تسلط العين على الحسام ، وإنما يريد أن تسلط العين على أثر الحسام في الرأس .
وفي مثل هذا التقديم يقول الإمام عبد القاهر: " ولا تزال ترى شعرًا يروقك مسمعه ، ويلطف لديك موقعه ، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك ، أن قدم فيه شيء ، وحول اللفظ عن مكان إلى مكان"[١]

وفي قوله : (خضَّب) إيحاء بقوة الضربة الواقعة على الرأس ؛ وذلك لما فيه من التضعيف ، فجزالة اللفظ هنا وقوته دلت على قوة المعنى ، وهذا مما يتناسب مع المقام والغرض المقصود ، وفي ذلك يقول بن الأثير[٢] " والألفاظ تنقسم في الاستعمال إلى جزلة ، ورقيقة ، ولكل منهما موضع يحسن استعماله فيه ، فالجزل منهما يستعمل في مواقف الحروب ، وفي قوارع التهديد ، والتخويف وأشباه ذلك ، وأما الرقيق منهما فإنه يستعمل في وصف الأشواق ، وفي ذكر أيام البعاد ، وفي استجلاب المودات والملاينات ". ويلزم من قوة الضربة التي دل عليها الفعل الماضي (خضب) قوة الضارب ، وشجاعته ،كما أن اختيار المفرق ليكون موضعًا للضرب دلالة على أن الضربة كانت من متمكن شجاع ، لا من خائف مذعور ، لأن مفرق الرأس هو وسطه ، والضرب في وسط الرأس لا يكون إلا عن قرب من المضروب ، وهذا القرب يدل على شجاعة الضارب وجسارة قلبه .
وتشعرك الإضافة في قوله : (حسامي) بأن هذا الحسام ليس مجرد سيف ، وإنما هو حسام خاص ، ومعروف ومشهور بنسبته إلى المتنبي ، فقوة الحسام ليست في ذاته ، وإنما في ذات صاحبه .

ويأتي النفي في قوله : (وما بلغت مشيئتها الليالي) ؛ ليصور لك خيبة الليالي في الوصول إلى غرضها ، وهو تغيير حال المتنبي ، وتوهين أمره ، وكسر قوته وصلابته ، وإضعاف همته وعزيمته .
وفي الاستعارة المكنية في قوله : (مشيئتها) تصوير لقوة الصراع بين الزمن والمتنبي ، وتصوير لشدة النكبات والابتلاءات التي يلاقيها المتنبي ، فقد شبه المتنبي الليالي بمن له القدرة على التدبير والتخطيط من أجل النيل منه ، والإيقاع به ، وفي هذا دلالة على قوة الأحداث التي تقع للمتنبي في هذه الليالي . والتعبير كله في قوله : (وما بلغت مشيئتها الليالي)كناية عن قوة المتنبي وشجاعته وصلابته أمام أحداث الزمان ، وعدم تأثره أو تغيره بسبب هذه الأحداث .

ويتمادى المتنبي في تجسيد الليالي فيسند إليها السير في قوله : (ولا سارت) ثم يجعل لها يدًا في قوله (وفي يدها زمامي) كل هذا التجسيد يجعل من الليالي شبحًا يطارد المتنبي ، مما يدل على كثرة المعاناة ، ولوعة المقاساة من تلك الليالي . وفي قوله : (ولا سارت وفي يدها زمامي) تأكيد للنفي في قوله: (وما بلغت مشيئتها الليالي) لأن الغرض من النفي المتكرر تأكيد قوة وشجاعة المتنبي أمام أحداث الزمان ، وعدم تأثره بها أو انقياده لها . وقد جاءت جملة (ولا سارت) معطوفة على جملة (وما بلغت مشيئتها) للتوسط بين الكمالين ؛ للاتفاق في الخبرية لفظًا ومعنى .
وفي قوله (زمامي) استعارة مكنية ، لأن الزمام في الأصل للبعير[٣] ، " تقول : زممت الناقة أزمها زمًّا والزمام الخيط الذي في أنفها[٤] " ، وعلى هذا فقد شبه المتنبي نفسه بشيء له زمام ، وفي مجيء هذه الاستعارة في سياق الجملة الحالية :(وفي يدها زمامي) الواقعة في سياق النفي دلالة على عدم خضوع المتنبي أو انقياده لأحداث الليالي ، وفي هذا إظهار لقوة المتنبي وشجاعته في مواجهة أحداث الزمان .

---

(١) دلائل الإعجاز ١٠٦
(٢) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير (ضياء الدين نصر الله بن محمد بن محرم) ت / أحمد الحوفي ، د / بدوي طبانة ، ط نهضة مصر ، القاهرة ـ ١٣٦٩هـ ـ ١٩٥٩م .
(٣) ينظر المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي ، لأحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي ١ / ٢٥٦ ط المكتبة العلمية ـ بيروت .
(٤) ينظر العين ٧ / ٣٥٤ .

وتتوالى الأبيات لتظهر الشجاعة في معرض بديع من الألفاظ والعبارات والصور وذلك في قوله :

إذا امتلأت عيون الخيل مني فويل في التيقظ والمنام

وأول ما يطالعك من نظم هذا البيت أداة الشرط (إذا) التي تدل على تحقق هذه الصورة ووقوعها كثيرًا. فامتلاء عيون الخيل بصورة المتنبي داخل المعركة أمر متحقق ومتكرر ، وهي صورة حسية تعبر عن شجاعة المتنبي وحسن بلائه في الحرب ، وفي قوله : (امتلأت عيون الخيل) كناية عن قرب المتنبي الشديد من هذه الخيول ، ورؤيتها له ، ووقوع بصرها عليه ، وهذا يدل على كثرة كر المتنبي وفره داخل المعركة .

وهذه الكناية جاءت بمثابة الدليل على شجاعة المتنبي ، هذه الشجاعة التي دفعته إلى أن يكون ظاهرًا للأعداء ، قريبًا منهم ، لا يفصله عن عيونهم شيء ، تحيط به خيول الأعداء من كل جانب .

ويمكن أن يكون الكلام هنا من قبيل المجاز المرسل ويكون المراد بالخيل أصحابها ، والتقدير إذا امتلأت عيون أصحاب الخيل ، وفي هذا المجاز إظهار لقوة الهلع والخوف من المتنبي ، وشهرة المتنبي داخل المعركة الحربية ، فإن شجاعته لا يعرفها الفرسان وحدهم ، وإنما الخيول التي يركبها الفرسان تعرف المتنبي وتهابه داخل الميدان الحربي . وقد جاء المسند إليه (عيون) جمعًا للدلالة على كثرة الخيول التي تفزعها صورة المتنبي داخل المعركة ، فالجمع هنا يضفي على السياق مزيدًا من إظهار الشجاعة والقوة داخل المعركة .

ويأتي لفظ الوعيد والتهديد في قوله : (فويل) الواقع في جواب الشرط ، ليدل على ثقة المتنبي التي ليست لها حدود في شجاعته ، فهي شجاعة مرعبة ، وقوة مفزعة ترهب الخيل وأصحابها ، وليس هذا في المعركة فحسب ، بل إن صورة المتنبي تفزع هذه الخيول وأصحابها حتى في حالة النوم ، وهذا ما دل عليه التضاد في قوله : (في التيقظ والمنام) .

فصورة المتنبي التي ظهر عليها في المعركة لا تفارق عيون الخيل ولا أصحابها حتى في النوم ، فَهُم من شدة خوفهم وفزعهم تتراءى لهم هذه الصورة المرعبة المخيفة في أحلامهم .

هكذا رسم المتنبي صورة شجاعته في عرض مبدع تحولت فيه المعنويات إلى صور متحركة ومتفاعلة ومتناسقة داخل النص الأدبي .

ومن حديث المتنبي عن شجاعته قوله[١] :

سيَصحَبُ النّصلُ[٢] مني مثلَ مَضربِهِ وَيَنجَلي خَبري عن صِمّةِ[٣] الصَّمَمِ
لقـــد تَصَبّرْتُ حتى لاتَ[٤] مُصْطَبَرٍ فالآنَ أقْحَـــمُ حتـــى لاتَ مُقتَحَمِ
لأترُكَـــنَّ وُجوهَ الخَيْلِ سَاهِمَـــةً[٥] وَالحـــرْبُ أقوَمُ مِنْ ساقٍ على قـــدَمِ
والطّـــعْنُ يُحـــرِقُها وَالزّجرُ يُقلِقُها حتـــى كأنّ بها ضَرْبًا مِـــنَ اللَّمَمِ[٦]
قد كَلّمَتْها العَوالي[٧] فَهْـــيَ كالحَـــةٌ كأنّما الصّابُ[٨] مَذرُورٌ على اللُّجَمِ

فقد جاءت هذه الأبيات في قصيدة قالها المتنبي في صباه ، وقد بدأها بقوله :

ضَيْفٌ ألَمّ برَأسِي غيرَ مُحْتَشِمٍ السّيفُ أحْسَنُ فِعْلاً منهُ باللّمَمِ

---

(١) الديوان ٣٧ ، ٣٨

(٢) النصل : حديدة السهم ،والرمح ، والسيف ما لم يكن له مقبض ج (أنصل ، ونصال ، ونصول) القاموس المحيط ١ / ١٣٧٨

(٣) الصمة : الشجاع وجمعه صمم ، ورجل صمة : شجاع (اللسان ١٢ / ٣٤٦)

(٤) لات : كلمة معناها : ليس تقع على لفظ الحين خاصة عند سيبويه (ينظر اللسان ٢ / ٨٦)

(٥) السهوم : عبوس الوجه من الهم ، ويقال للفرس إذا حمل على كريهة الجري : ساهم الوجه ، وكذلك الرجل في الحرب ساهم الوجه (كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي) ت / د / مهدي المخزومي ود / إبراهيم السامرائي ١ / ٢٣٨ ط دار مكتبة الهلال .

(٦) اللمم : الجنون ، وقيل طرف من الجنون يلم بالإنسان (اللسان ١٢ / ٥٥١) .

(٧) العوالي : عوالي الرماح : أسنتها ، واحدتها عالية (اللسان ١٥ / ٨٧) .

(٨) الصاب : شجر مر واحدته صابة (المحكم والمحيط الأعظم ٨ / ٣٨٨)

وفي هذه الأبيات يتحدث المتنبي عن شجاعته . ولما كانت المبالغة سمة من سمات شعر المتنبي في صباه ، بالغ المتنبي في هذه القصيدة في الحديث عن شجاعته حتى وصل في بعض أبيات القصيدة إلى الغلو غير المقبول ، وذلك في قوله في نفس القصيدة :

تُنسِي البلادَ بُرُوقَ الجَوّ بَارِقتي وتَكتَفي بالدّم الجاري عَنِ الدِّيَمِ

فهو في هذا البيت يقول " إذا برقت سيوفي في حرب أعدائي ، فإن ضوءها يزيد على ضوء بروق السحاب حتى تنسى الناس البروق ، ويكثر مع ذلك سيلان الدماء ، حتى تستغني البلاد عن الأمطار بما صبه من الدماء[١]" ، وعلى هذه المبالغة الخارجة عن الحد يعلق أبو البقاء العكبري فيقول " وهذا كلام مشبّع بالحماقة ، حتى لو قاله أحد بني بويه ، أو بني أرتق ، أو بني أيوب ، لنُسب إلى ذلك ، وهم ملوك الأرض وحملتها ، وأرباب المغازي وولاتها[٢] ".

إذا فالمبالغة هي سمة أحاديث الصبا في شعر المتنبي خاصة عند الحديث عن ذاته . وأول ما يطالعك من الأساليب البلاغية في الأبيات التي معنا هي الاستعارة المكنية التي صنعت الصحبة والملازمة بين المتنبي وسيفه وذلك في قوله : (سيصحب النصل) فقد جعل المتنبي من السيف إنسانًا له القدرة على اختيار الصاحب الذي يضاهيه في قوته وصلابته ، بل إنه تناسى التشبيه وجعله صاحبًا بالفعل ، حيث أسند له لفظ الصحبة ، وبذلك تكون هناك ملازمة بين المتنبي والسيف ، وذلك لأن الصحبة تقتضي هذه الملازمة .

وقد استخدم المتنبي أسلوب التجريد فلم يقل : سيصحبني النصل ، وإنما قال : (سيصحب النصل مني) فقد انتزع المتنبي من نفسه شخصًا آخر لهذه الصحبة ، وكأنه بذالك يشير إلى تغيره وتحوله ، فقد أصبح المتنبي شخصًا جديدًا في قوته وشجاعته ، يدلك على هذا التحول والتغير قوله :

لقد تصبرت حتى لات مصطبر فالآن أقحم حتى لات مقتحم

فالشطر الأول من هذا البيت يدل على أنه كان يصبر ويتحمل الصبر ولا يوقع نفسه في المهالك ، أما الشطر الثاني فهو يدل على تغيره وتحوله ، فالمتأمل في لفظة (فالآن) يجدها تشير إلى الوقت والزمن الذي حدث فيه هذا التغير والتحول في شخصية المتنبي ، وكأنه يقول من الآن سأحمل نفسي على عظائم الأمور ، وسألقي بنفسي في مواطن الهلاك دون صبر أو خوف .

وقد آثر المتنبي قوله : (مثل مضربه) ولم يقل : سيصحب السيف مني مثله ؛ لأن السيف لا تعرف قوته ، وحدته ، إلا بالاستعمال . إذًا فالمتنبي لا يريد تشبيه نفسه بمطلق السيف ، وإنما يريد أن يشبه نفسه بالسيف القوي الحاد الصلب المجرّب.

وتأتي الاستعارة في قوله : (وينجلي خبري) لتظهر شجاعة المتنبي في صورة الشيء الحسي الظاهر الذي لا يستطيع أحد أن ينكره ،فالناس جميعًا سيتحدثون عن هذه الشجاعة في كل مكان وزمان.

وفي هذه الاستعارة إيماء بأن من ينكر شجاعة المتنبي يكون كمن ينكر ضوء الصبح ، أو ينكر ضوء الشمس ، لأن شجاعته ستصبح جلية واضحة لا ينكرها إلا حاقد أو حاسد .

من هنا كان هذا التعبير (وينجلي خبري) أقوى في الدلالة على ذيوع شجاعة المتنبي وانتشارها من التعبير بلفظ الذيوع أو الانتشار أو الشهرة أو غيرها من الألفاظ التي تمكن أن تقوم مقام الفعل ينجلي. وقد جاءت هذه الجملة (وينجلي خبري) معطوفة على جملة (سيصحب النصل) لما بينهما من التناسب فقد اتفقت الجملتان في الخبرية لفظًا ومعنى ، فبينهما نوع من الوصل ، وهو التوسط بين الكمالين . وبعد أن كشف المتنبي عن شجاعته وقوته في البيت السابق جاء البيت التالي ليظهر أثر هذه الشجاعة داخل المعركة ، وذلك في قوله :

لأتركنّ وجوه الخيل ساهمة والحرب أقوم من ساق على قدم

---

(١) التبيان ٤ / ٤٤

(٢) المصدر نفسه ٤ / ٤٤.

ففي قوله : (لأتركنّ) جواب لقسم محذوف والتقدير : والله لأتركنّ ، والقسم من الأساليب القوية، فهو هنا يعبر عن قوة الثقة في النفس ، وفي شجاعتها بالإضافة إلى ما فيه من التصميم والعزم على تحقيق ما جاء في جواب القسم .

وأول أثر من آثار شجاعة المتنبي في الحرب جاء في قوله : (وجوه الخيل ساهمة) وهي صورة حقيقية يقدم بها المتنبي شجاعته مقرونة بالدليل الحسي المادي ، وهي كناية عن اشتعال المعركة ، وشدة القتال ، وكثرة الغبار الذي يظهر أثره على وجوه الخيل ، وإذا كانت الصورة هنا للخيل ، فإنها تعكس صورة أصحابها ، فإن هذه الصورة للخيل الساهمة تعكس صورة الفرسان الذين يمتطونها ، فمما لا شك فيه أن صورة أصحاب الخيل أشد وطأً من صورة الخيل .

ويأتي الأثر الثاني من آثار شجاعة المتنبي في الحرب وذلك في قوله : (والحرب أقوم من ساق على قدم) ، وهذه الصورة تؤازر صورة الخيل الساهمة في إبراز شجاعة المتنبي وقوته ، فهي جملة حالية تصف هيئة الحرب ، وقد جاءت هذه الجملة لابسة ثوب التشبيه الضمني ، فقد شبهت الحرب في شدتها واشتعالها بانتصاب الساق على القدم .

وهذه الصورة الحسية للخيل والحرب تعكس الصفة المعنوية التي أراد المتنبي أن يثبتها لنفسه عن طريق الأدلة المادية المحسوسة ، وهذا هو سر اتكائه على الصور البيانية في حديثه عن صفاته المعنوية .

وفي التعبير بأفعل التفضيل (أقوم) ما يشير إلى أن صورة المشبه أقوى في وجه الشبه من المشبه به ، فليس الغرض من التشبيه بيان الشبه فقط ، ولكن الغرض إظهار قوة الصورة في المشبه ، وبلوغها الدرجة التي فاقت بها صورة المشبه به ، وهذا يضفي على المعركة مزيدًا من القوة والشدة مما يعكس بقوة شجاعة المتنبي ، وبلوغها أقصى الغايات .

ويمضي المتنبي في بيان أثر قوته على الخيل داخل المعركة فتجده يرسم هذه الصورة للخيل وذلك في قوله :

والطعن يحرقها والزجر يقلقها حتى كأن بها ضربًا من اللمم

وأول ما يطالعك في هذا البيت هو أسلوب الاستعارة في قوله : (والطعن يحرقها) فقد تحول الطعن عن طريق هذه الاستعارة إلى نار مشتعلة تلهب الخيل ، وتحركه حركة غير واعية ، تذهب به يمينًا ويسارا.

وتجد شدة الاضطراب في قوله : (والزجر يقلقها) فهذا التعبير بالفعل المضارع (يقلقها) يُظهر أثر الزجر على الخيل ، فهو يجعلها تتحرك حركة مضطربة غير واعية ، وهذه الحركة المضطربة تعكس قوة الصياح والزجر من الفرسان للخيول . وهذه القوة في الطعن والقوة في الزجر تُظهر قوة وشجاعة الفارس الذي يواجه هذه الخيول ويزعجها بطعنه وزجره .

ويأتي التشبيه في قوله : (كأن بها ضربًا من اللمم) ؛ ليرسم صورة أخرى للخيل ، هي أقوى في إظهار شجاعة المتنبي ، وقوة تأثيره داخل المعركة من الصورة الأولى التي رسمها المتنبي للخيل في قوله :(لأتركنّ وجوه الخيل ساهمة). فالصورة الأولى دلت على تغير ألوان الخيل من شدة الغبار داخل المعركة ، وهي وإن كانت تعكس شراسة المعركة واحتدامها إلا أن الصورة الثانية التي جاءت عن طريق التشبيه أقوى في إظهار شدة المعركة وقوتها ، فقد جعل الخيل من شدة اضطرابها من كثرة الطعن وقوة الزجر كأن بها ضربًا من الجنون ، وهذا التشبيه من بديع المركب الحسي ؛ لأنه واقع في

هيئة الحركة ، وفي مثل هذا التشبيه يقول الإمام عبد القاهر : " اعلم أن مما يزداد به التشبيه دقة وسحرًا أن يجيء في الهيئات التي تقع عليها الحركات "[١] ، وهذا التشبيه يصور شدة الاضطراب ، والحركة الغير واعية مع زيغ البصر ؛ لأن الذي به جنون ترى بصره زائغًا يلتفت يمينًا ويسارًا ، ويتحرك دون إدراك ، وكل هذه الأشياء التي يوحي بها المشبه به تنعكس على صورة الخيل ، لتبرز شجاعة المتنبي في صورة حسية ، وأدلة مادية تقدم من داخل المعركة . وتتوالى صور الخيل فيأتي البيت الأخير ليرسم صورة ثالثة للخيل في قوله :

قد كلمتها العوالي فهي كالحة كأنما الصاب مذرور على اللجم

وفي هذه المرة رسم المتنبي صورة واقعية للخيل وذلك في قوله : (قد كلمتها العوالي فهي كالحة) ، وقد جاء المسند إليه (العوالي) جمعًا ليزيد من صورة العبوس على وجوه الخيل ؛ لأن في الجمع هنا دلالة على كثرة الجراح التي تعرضت لها الخيل ؛ فالعوالي : هي أسنة الرماح ، وكثرتها يدل على كثرة الطعن داخل المعركة ، وكثرة الطعن دليل مادي على الشجاعة داخل المعركة، فالجمع قد أضفى على صورة الخيل مزيدًا من الجراح والألم والعبوس . وأرى أن المتنبي كان لابد أن يختار للخيل صورة أقوى من هذه الصورة ، لأنه قد استخدم في البيت السابق صورة قوية ، فقد جعل الخيل من شدة اضطرابها كأنها أُصيبت بالجنون ، فكان من الأولى أن يأتي المتنبي بصورة أقوى من هذه الصورة التي جاءت في البيت السابق ، فكيف يصف الخيول بأنها عابسة من ألم الجراح بعد وصفها بالجنون ! ولو أن المتنبي بدأ بهذه الصورة (فهي كالحة) ثم تدرج في الوصف لكان ذلك في نظري أبلغ ، لما فيه من التدرج من الأدنى للأعلى ، أو من الأضعف للأقوى. وفي قوله:(كأنما الصاب مذرور على اللجم) ، وفي رواية (كأنما الصاب معصوب على اللجم) تشبيه يظهر قوة المتنبي العالية في التقريب بين المتباعدين ،وهو أصل من أصول استحسان التشبيه،وفي ذلك يقول أستاذنا الدكتور أبو موسى:" وأشهر ما يذكر في هذه الأصول هو الجمع الصحيح بالعلاقة البيّنة بين طرفين متباعدين في الجنس"[٢] .

فقد جعل المتنبي " الخيل عابسة ، فاتحة أفواهها ؛ لما بها من ألم الجراح ، كأن الصاب (وهو نبت مر المذاق) ذُرّ على لجمها فهي تكره أن تطلق أفواهها[٣] " ، وبذلك يكون المتنبي قد قرَّب بين شيئين متباعدين في الجنس : الخيول العابسة ، والنبات المر المذاق ، فكما أن الجراح تجعل الخيل عابسة فاتحة لأفواهها ، فكذلك الشجر المر المعصوم على اللجم يمنع الخيل من أن تطلق أفواهها ، وتكون أفواهها حينئذٍ عابسة لكراهتها لطعم ورائحة هذا النبت.

وفي قوله : (مذرور على اللجم) دلالة على قرب هذا الشجر المر من فم الخيول ، وذلك مما يزيد من عبوسها ؛ لأنها عند إطلاق فمها ستذوق أو تشم مرارة هذا الشجر ، وشدة العبوس في صورة المشبه به تعكس شدة عبوس الخيل في المعركة من ألم الجراح .

هكذا استخدم المتنبي الصور الحسية من تشبيه واستعارة وكناية ليقدم شجاعته المعنوية بأدلتها الحسية والمادية ، ولينقل الشجاعة من عالم المعنويات إلى عالم الحسيات ليكون ذلك أقوى في التعبير والتأثير ، " وقيمة الأسلوب التصويري تبدو جلية حينما تعبر عن معنى من المعاني بأسلوب تجريدي، ثم تعرضه في أسلوب تصويري[٤] ، فإننا نجد أن المعنى في الطريقة الأولى يخاطب الذهن والوعي ، ويصل إليهما مجردًا من ظلاله الجميلة ، وفي الطريقة الثانية يخاطب الحس والوجدان ، ويصل إلى النفس من منافذ شتى ، من الحواس بالتخيل ، ومن الوجدان المنفعل بالأصداء ، ويكون الذهن منفذًا واحدًا من منافذها الكثيرة إلى النفس ، لا منفذها الوحيد "[٥] .

---

(١) الأسرار ١٨٠

(٢) التصوير البياني (دراسة تحليلية لمسائل البيان) د / محمد محمد أبو موسى ص ١١٩ ـ ط ٤ مكتبة وهبه ١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٧ م .

(٣) التبيان في شرح الديوان ٤ / ٤٣

(٤) أسلوب الدعوة القرآنية بلاغة ومنهجا د / عبد الغني سعد بركة ص ٢٨٦ ـ ط ١ ، مكتبة وهبة ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣ م .

(٥) التصوير الفني للشهيد سيد قطب ، ١٩٥ ط ١٤ ، دار الشروق .

ومن خلال ما سبق من حديث المتنبي عن شجاعته يرصد البحث الآتي :
رسم المتنبي في الحديث عن شجاعته صورة للفارس البطل الذي لا يجد متعته إلا في خوض المعارك ،والذي لا يعرف الخوف طريقًا إلى قلبه . وأرى أن هذه الصورة التي رسمها المتنبي لنفسه هي صورة البطل العربي المفقود الذي كان يبحث عنه المتنبي في هذا الزمن حتى يعيد للشخصية العربية النخوة الضائعة ، والكرامة المهدرة وسط سيطرة المستعمر على مقاليد الحكم في البلاد العربية .

- كثيرًا ما يستخدم المتنبي الأدوات الحربية في إبراز شجاعته فهو يشبه نفسه بالسيف ، وينوع من مسمياته ، فتارة يطلق عليه الحسام ، وتارة الصارم ، وتارة النصل ، كذلك استخدم الرماح في إبراز شجاعته ، ورسم صور الخيل داخل المعركة ليكشف عن فرط شجاعته وأثرها على الخيول وأصحابها .
- يكثر المتنبي في الحديث عن شجاعته من الصور الخيالية التي تصنع في بعض الأحيان نوعًا من المبالغة المفرطة ، كما جاء في قوله : (أخاف الموت أم ذعر الذعر) وقوله : (يحاذرني حتفي كأني حتفه) وقوله (ولو برز الزمان إلى شخصًا لخضب شعر مفرقه حسامي)
- الاستعارة والكناية هما أكثر الأساليب البلاغية التي استخدمها المتنبي في الحديث عن شجاعته ؛ وذلك لما فيهما من إبراز المعنويات في صور حسية ومادية ملموسة ، بالإضافة إلى ما في الكناية من تقديم الدعوى بدليلها ، فهو بأسلوب الكناية يقدم الشجاعة بأدلتها المادية ؛ ليظهر بذلك أن شجاعته ليست ادعاءً ، وإنما هي واقع مشاهد ومحسوس.

ثالثًا : بلاغة المتنبي في وصفه لعفته :

العفة : هيئة للقوة الشهوية متوسطة بين الفجور ، الذي هو إفراط هذه القوة ، والجمود الذي هو تفريطها ، فالعفيف من يباشر الأمور على وفق الشرع والمروة[١] .

وقد حث الإسلام على العفة ، وجعلها من صفات المؤمنين ، قال تعالى : { قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم[٢] }، والناظر في شعر المتنبي يجد أن العفة من الصفات التي تحدث عنها، ووصف بها نفسه ، وقد شهد معاصرو المتنبي له بهذه الصفة .

ومن حديث المتنبي عن عفته قوله[٣] :

مِنْهَا شَرَابِي وَبِهَا اغْتِسَالِي لا تَخطُرُ الفَحشاءُ لِي ببَالِ
لَوْ جَذَبَ الزَّرَّادُ[٤] مِنْ أذْيَالِي مُخَيِّرًا لِي صَنْعَتَيْ سِرْبَالِ[٥]
مَا سُمْتُهُ[٦] زَرْدَ[٧] سِوَى سِرْوَالِ وَكَيفَ لا وَإنّمَا إدْلالِي[٨]

فهذه الأبيات جاءت في قصيدة أنشدها المتنبي عضد الدولة ، وقد بدأها بالحديث عن ذاته ، فقال :

مَا أجْدَرَ الأيّامَ وَاللّيَالِي بأنْ تَقُولَ مَا لَهُ وَمَا لِي

وهذا الحديث عن الذات من بداية القصيدة يدل على أن المتنبي كان يرى نفسه ـ دائمًا ـ في مكانه أعلى من منزلة من يمدحه ، ويدل ـ أيضًا ـ على أن الاعتداد بالذات والفخر بها من أهم ملامح شخصية المتنبي . وقد جمع المتنبي في البيت الأول من الأبيات الثلاثة التي هي محل الشاهد بين الحديث عن عفته وشجاعته ، ففي الشطر الأول بالغ في الحديث عن شجاعته بقوله : (منها شرابي وبها اغتسالي) ، والضمير في (منها) ، و (بها) عائد على الحروب المذكورة في قوله في البيت السابق :

لا أنْ يكونَ هكَذا مَقَالِي فَتًى بِنِيرانِ الحُروبِ صَالِ

وقد جاءت جملة : (لا تخطر الفحشاء لي ببال) مفصولة عمّا قبلها ؛ لأنها جاءت لتحمل معنى جديدًا غير ما سبق ، فالمتنبي قبل هذه الجملة يتحدث عن شجاعته ، أما في هذه الجملة فقد بدأ يتحدث عن عفته، ففي الكلام حسن تخلص[٩] بالانتقال من الحديث عن الحرب وشجاعته فيها إلى الحديث عن عفّته .

ومناسبة الحديث عن العفة أثناء الحديث عن القتال هي أن المتنبي أراد أن يبين أنه لا مجال في ذهنه للتفكير في غير الحرب ، ولما كان أول ما يشغل الرجال عن الحرب والجهاد هي النساء انتقل من الحديث عن الحرب إلى الحديث عن العفة ليجمع بين صفتين من صفات الفارس الحق الذي لا يشغله شيء عن الجهاد هما : الشجاعة والعفة .

وفي قوله (لا تخطر الفحشاء لي ببال) كناية عن بعده كل البعد ، وتنزهه عن ارتكاب الفاحشة ، لأنه يلزم من عدم التفكير في الفاحشة ، عدم الوقوع فيها ، لأنه إذا كان مجرد التفكير في الفاحشة غير حاصل ، فمن باب أولى أن يكون الوقوع فيها غير حاصل ، ولذلك آثر المتنبي التعبير بقوله : (لا تخطر) دون غيره مما يمكن أن يؤدي المعنى المقصود من مثل لا أرتكب ، أو لا أقع في الفاحشة ، أو

---

(١) التعريفات ١٥٦
(٢) من الآية { ٣٠ } سورة النور
(٣) الديوان ٥٦٠
(٤) الزراد : صانع الدروع (ينظر اللسان ٣ / ١٩٤)
(٥) السربال : القميص ، والدرع ، وقيل : كل ما لبس ، فهو سربال (اللسان ١١ / ٣٣٥)
(٦) سمته : السوم في المبايعة ، تقول فيه ، ساومه سوامًا بالكسر وتساومنا ، وسمته بعيره سيمة حسنه ، وإنه لغالي السيمة ، وسامه حسنا : أي أولاه إياه ، وأراده عليه (مختار الصحاح محمد أبي بكر بن عبد القادر الرازي ت / محمود خاطر ، مكتبة لبنان ناشرون بيروت ١ / ١٣٥ ، ط جديدة ـ ١٤١٥ هـ ـ ١٩٩٥ م
(٧) الزرد والسرد بمعنى واحد : اسم جامع للدروع ونحوها من عمل الحلق ، وسمي سردًا ؛ لأنه يسرد فيثقب طرف كل حلقة بمسمار ، فذلك الحلق المسرد ،، والسراد ، والزراد ، والمسرد المثقب (اللسان ٧ / ٢٢٧)
(٨) إدلالي : الإدلال : الفخر ، ويمكن أن يراد به السكينة والوقار في الهيئة ، والمنظر ، والشمائل ، وغير ذلك (اللسان ١١ / ٢٤٨)
(٩) حسن التخلص : هو الانتقال مما شبب الكلام به من تشبيب أو غيره إلى المقصود ، مع رعاية الملاءمة بينهما (بغية الإيضاح تأليف الشيخ عبد المتعال الصعيدي ٢ / ٣٠ مكتبة الآداب ـ ط ١٧ ـ ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥ م .

غيره ، لأن هذا التعبير أدل على البعد عن الفاحشة والتنزه عنها من غيره .

وقد استخدم المتنبي النفي بـ (لا) فقال : (لا تخطر الفحشاء) ولم يقل : لم تخطر ، لأن لا تفيد نفي خطور الفاحشة في الحال والاستقبال ، ولو قال : لم تخطر الفحشاء لي ببال يمكن أن يقتصر النفي على الزمن الحالي دون النظر إلى ما يستقبل من الزمان . وبعد أن عبر المتنبي عن عفته في هذا البيت بالأسلوب المباشر جاء البيتان التاليان ليعبرا عن هذه العفة بالأسلوب الضمني ، وذلك في قوله :

لو جذب الزراد من أذبالي مخيرًا لي صنعتي سربال
ما سمته زرد سوى سروال وكيف لا وإنما إدلالي

قال أبو الفتح في معنى البيتين : " أي لو عرض على الزراد صنعتين من الدروع مخيرًا لي بينهما لما طلبت منه إلا أن يصنع لي سراويل من حديد تحصن عورتي ، ولا أبالي بعد ذلك بانحسار سائر جسدي "[١] . ففي قوله : (لو جذب الزراد) كناية عن الإخبار ، وذلك لأن الذي يريد أن يخبر إنسانًا بشيء يجذب أذيال ثوبه . وقد جاء المسند إليه (الزراد) معرفًا بـ (ال) للدلالة على الشهرة بالصنعة ، والإتقان لها ، فهو لا يقصد إلا أهل الصنعة الماهرين ، المعروفين بصنعتهم ودقتهم . وقد استخدم المتنبي أسلوب القصر في قوله (ما سمته زرد سوى سروال) ليعبر بقوة أسلوب القصر ، وما فيه من تأكيد عن شدة عفته ، وقوة مطلبه ، فهو قصر مطلبه عند التخيير بين صنفتين من الدروع على سربال من حديد يحصن به عورته ، فالقصر هنا من قصر الصفة على الموصوف قصرًا حقيقيًا ادعائيًا . وهذا التعبير (ما سمته سرد سوى سروال) كناية عن عفة المتنبي ؛ لأنه يلزم من تحصين الفرج العفة ، والتنزه عن الوقوع في الفاحشة . ويعلق ابن معقل المهلبي على قول المتنبي (ما سمته زرد سوى سروال) قائلاً " ما الحاجة إلى هذه السراويل من حديد إن كان لأجل التحصن من الفحشاء ، والتحصن بدرع العفاف يغني عنها ، وأوفى منها ؟[٢] " .

ولست مع ابن معقل في هذا النقد ؛ لأن المتنبي بدأ بما يدل على أنه محصن بدرع العفاف في قوله : (لا تخطر الفحشاء لي ببال) فهو لا يفكر في الفحشاء ، ولا تخطر له ببال ، ولا يحتاج إلى دروع يتحصن بها ، ولكنه أراد أن يثبت شدة حرصه على البعد عن الفاحشة ، فهو يريد أن يحصن نفسه بالسروال المصنوع من الحديد مع ما يتصف به من العفة .

والاستفهام في قوله (وكيف لا) خرج من معناه الحقيقي إلى معنى التعجب ، أي كيف لا أطلب سروالاً من حديد أحصن به عورتي ، وأعف به نفسي ، وفي ذلك فخري واعتزازي ، وكأن المتنبي بهذا الاستفهام التعجبي يرد على من ينكر عليه هذا المطلب ، ويتعجب من إنكاره . وقد جاءت (إنما) في قوله : (وإنما إدلالي) لتؤكد حق المتنبي في طلبه تحصين عورته ، ففي تحصين العورة فخر مؤكد ، وقد استخدم(إنما) للدلالة على أن هذا الفخر الذي تجلبه العفة معلوم وظاهر لا يستطيع أن ينكره أحد.

ومما جاء في عفته قوله[٣] :

وحملتُ مَا حُمّلتِ مِن هذي المَها وحَملتِ مَا حُمّلتُ من حسراتِهَا
إنّي على شَغَفي بما في خُمْرِها لأعِفُّ عَمَّا في سَرابيلاتِهَا[٤]

فقد جاء هذان البيتان في مطلع قصيدة يمدح بها المتنبي أبا أيوب أحمد بن عمران ، وقد بدأها بقوله :

سِرْبٌ مَحَاسِنُهُ حُرمتُ دَوَاتِها داني الصّفاتِ بَعيدُ مَوْصوفاتِهَا

والمتنبي في هذين البيتين يتحدث عن عفته مع هؤلاء النسوة اللاتي وصفهن بالجمال في قوله : (حملت ما حملت من هذي المها) ، وقد عبر باسم الموصول (ما) دون ذكر ما تحمله الإبل ؛ للدلالة على أنها تحمل شيئا عظيمًا لا يستطيع المتنبي أن يحيط بأوصافه ، أو أن يحدد ماهيته .

---

(١) الفسر لابن جني ج ٤ المجلد الثالث ٢٨٧

(٢) المآخذ على شرح بن جني الموسوم بالفسر لابن معقل المهلبي ت د / عبد العزيز بن ناصر المانع ١ / ١٧٥ ط مركز فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ١٤٢٢ هـ .

(٣) الديوان ١٨٥

(٤) السربال القميص والدرع ، وقيل كل ما لبس فهو سربال (اللسان ١١ / ٣٣٥ .

ولعظم هذا المحمول الذي دل عليه التعبير بـ (ما) تمنى المتنبي أن يكون هو الحامل لهذه المها ، ففي قوله (حملت ما حملت) جملة دعائية يتمنى بها المتنبي أن يكون هو الحامل لتلك النسوة لا الإبل . وهذه الجملة الدعائية تُظهر قوة الميل والإعجاب بهؤلاء النسوة ، فالمتنبي يتمنى أن يتحمل مشاق الحمل ، وإرهاق السير من أجل أن يحظى بالقرب من تلك النسوة . وزيادة في إظهار الإعجاب بتلك النسوة شبهها المتنبي بالمها ، والمها : بقر الوحش ، وهو معروف بجمال العيون ، فهذا التشبيه الذي جاء عن طريق الاستعارة يبرز جمال النسوة ، كما يعكس شدة إعجاب المتنبي بهن ، وهذه الصفات الجمالية التي يريد أن يثبتها المتنبي للنسوة بمثابة التمهيد للحديث عن شدة عفته ؛ لأن العفة تكون أشد وأقوى أمام المفاتن التي تشد الإنسان إليها ، فكلما زاد الجمال ، وزادت المفاتن ، ووسائل الجذب كلما احتاج الإنسان إلى درجة أعلى من العفة يستطيع بها أن يواجه ما أمامه من المغريات التي من السهل أن يقع فيها أصحاب النفوس الضعيفة .

وجاء الشطر الثاني : (وحملت ما حملت من حسراتها) ليصور الحالة النفسية المسيطرة على المتنبي عند فراق هؤلاء النسوة ، فهو يتمنى أن يتحمل هو مشقة الحمل ، وتتحمل الإبل مشقة الحسرة التي بداخله ، فالأسلوب هنا خبري في اللفظ إنشائي في المعنى ؛ لأنه يدعو على الإبل بأن تحمل الحسرات والأحزان والهموم التي بداخله بدلاً من حمل النسوة .

وقد جاء هذا الشطر الثاني معطوفًا بالواو على الشطر الأول ؛ للاتفاق في الإنشائية في المعنى ، والخبرية في اللفظ ، فبين الشطرين نوع من الوصل يسمى التوسط بين الكمالين .

ولما كان الوصف للنسوة بالجمال يوهم السامع خلاف ما قصده المتنبي من النظرة العفيفة إلى هؤلاء النسوة جاءت البيت التالي ، ليدفع هذا الوهم ، وذلك في قوله :

إني على شغفي بما في خمرها لأعف عمَّا في سرابيلاتها

فهذا البيت أراد أن يصور به المتنبي عفته عن هؤلاء النسوة ، فقد أكد في الشطر الأول إعجابه الشديد بجمالهن ، وذلك في قوله : (إني على شغفي بما في خمرها) فالتعبير بإن الدالة على التوكيد ، مع التعبير بلفظ الشغف يدل على قوة ، وشدة الإعجاب بجمال هؤلاء النسوة الخارجي .

فهذا الأسلوب الذي صدّره المتنبي بأداة التوكيد جاء كناية عن تطلع المتنبي إلى رؤية وجوه النسوة وعيونهن . وهذا الشغف الذي دل عليه الشطر الأول قابله المتنبي بالعفة في الشطر الثاني ، وذلك في قوله : (لأعف عمَّا في سرابيلاتها) ، فالشطر الثاني جاء كناية عن عدم تطلع المتنبي أو تفكيره في ارتكاب الفاحشة . وفي رواية أخرى : (لأعف عما في سراويلاتها) ، والرواية الأولى أبلغ ؛ لما فيها من التلميح ، أما هذه الرواية ففيها تصريح غير مقبول . ومما أخذ على المتنبي على هذه الرواية أنه بصدد الحديث عن العفة ، والعفة كانت تقتضي منه أن يكون عفيفًا في ألفاظه ، وأن يكني عن أماكن الفاحشة كعادة الشعراء ، ولكنه خالف هذه العادة ، واستخدم التصريح بدلاً من التلميح ، وذلك في قوله : (لأعف عمَّا في سراويلاتها) وفي ذلك يقول الصاحب بن عباد " كان الشعراء يصفون المآزر تنزيهًا لألفاظها عمَّا يستشنع ، حتى تخطى هذا الشاعر المطبوع إلى التصريح ، وكثير من العهر عندي أحسن من هذا العفاف[١] " . ومما جاء في عفته ـ أيضًا ـ قوله[٢] :

وَأشنَبَ[٣] مَعْسُولِ الثَّنِيّاتِ[٤] وَاضِحٍ سَتَرْتُ فَمِي عَنهُ فَقَبّلَ مَفْرِقِي[٥]

---

(١) التبيان في شرح الديوان ١ / ٢٣٢

(٢) الديوان ص ٣٤٥

(٣) الشنب : رقة وبرد وعزوبة في الأسنان ، وقيل : الشنب بقط بيض في الأسنان (اللسان ١ / ٥٠٧)

(٤) الثنيات: الثنية من الأضراس أول ما في الفم (المحكم والمحيط الأعظم لأبي الحسن علي بن إسماعيل بن سيدة المرسي) ت / عبد الحميد هنداوي ١٠ / ١٩٨ ، ط دار الكتب العلمية ـ بيروت ، ط أولى ٢٠٠٠م .

(٥)المفرق : هو مجرى الرأس بين الجبينين إلى الدائرة (تهذيب اللغة ٦ / ٢٤٧)

وَأجيادِ[١] غِزْلانٍ كجيدِكَ زُرْنَني فَلَمْ أتَبَيّنْ عاطِلاً[٢] مِنْ مُطوَّق[٣]
ومَا كلّ مَنْ يهوَى يَعِفّ إذا خَــلا عَفَافي وَيُرْضِي الحُبّ وَالخَيلُ تلتقي

فقد جاءت هذه الأبيات في قصيدة يمدح بها المتنبي سيف الدولة وقد بدأها بقوله :

لِعَيْنَيْكَ مَا يَلقَي الفُؤادُ وَمَا لَقي وللحُبّ ما لم يَبقَ منّي وما بَقي

وقد اعتمد المتنبي في هذه الأبيات على الوصف لإظهار عفته . ففي البيت الأول يصف محبوبته بقوله : (وأشنب معسول الثنيات واضح) وهي أوصاف لموصوف محذوف ، وتقدير الكلام ؛ ورب حبيب أشنب معسول الثنيات واضح . وقد حذف المتنبي الموصوف ؛للاتكاء على الصفات ؛ لأن الغرض إظهار ما يتصف به هذا المحبوب من صفات تدعو إلى الميل إليه ، والرغبة فيه . وأول ما وصف به المتنبي محبوبته هو قوله : (أشنب) والأشنب : هو صاحب الثغر البراق ، ثم أتبع المتنبي هذا الوصف بقوله : (معسول الثنيات) وهي صفة ـ أيضًا ـ من الصفات التي يتطلع إليها أصحاب الشهوة في المرأة ، فهو وصف لحلاوة ريق الثنايا . ثم وصف الثغر بأنه واضح الثنايا ، وذلك في قوله (واضح) ، وكل هذه الأوصاف أراد أن يظهر بها المتنبي قوة عفته ، فليس المقصود الأول هو جمال المحبوبة ، وإنما إظهار جمال المحبوبة ما هو إلا وسيلة لإبراز ما يتمتع به المتنبي من صفات العفاف ، فهو لشدة عفته لا يقع فريسة لكل هذه الإغراءات التي يمكن أن تستميل قلوب أصحاب النفوس المريضة .

وتظهر العفة بقوة في التعبير بقوله : (سترت فمي عنه) ، ففي هذا التعبير دلالة على رغبة الطرف الآخر في التقبيل ، لأن الستر : إخفاء ومنع من جانب ، وتطلع من جانب آخر ، وهذا يدلك على أن الأمور كلها مهيأة ، فالجمال والرغبة متحققان في المحبوبة إلا أنك تجد في مقابل هذا العفة والتماسك في جانب المتنبي .وقد اقتضت هذه العفة هذا التصرف من المحبوبة ، وذلك في قوله : (فقبل مفرقي) فقد جاء هذا التعبير كناية عن تقدير المحبوبة ، وإجلالها ، واحترامها لعفة المتنبي ، وفي هذا التعبير ـ أيضًا ـ إظهار لحرص المتنبي على ألا يقطع صلته بمحبوبته، لذا فقد ترك لها المفرق وسمح لها بتقبيله ، وفي هذا يقول العكبري : " والمعنى أنه أحب وصله ، وتعفف عمَّا حرم الله تعالى "[٤] .

وتجد جمال التشبيه وروعته في إبراز عفة المتنبي في قوله : (وأجياد غزلان كجيدك زرنني) ، فقد وصف المتنبي النسوة بجمال العنق عن طريق التشبيه في قوله : (وأجياد غزلان) ، وأجياد الغزلان تتصف بطولها ، ومن هنا أثبت المتنبي صفة الطول لأعناق النسوة ، وصفة الطول في العنق من صفات الجمال التي تدعو إلى الرغبة فيهن ، والميل إليهن ، وبذلك يكون المتنبي قد كشف بهذا التشبيه عن قوة عفته التي تقف حائلاً بينه وبين الوقوع في الفاحشة مع وجود الدوافع والمغريات القوية التي تشد إليها ، والتي لا يستطيع أن يقف أمامها أصحاب النفوس الضعيفة .

ويأتي أسلوب النفي عقب أسلوب التشبيه ، وذلك في قوله : (فلم أتبين عاطلاً من مطوق) فهذا الأسلوب جاء كناية عن عدم النظر إلى النسوة ، أو التفحص في دقائقهن ، وفي هذا تأكيد للتشبيه في بيان عفة المتنبي ، وعزوفه عن هؤلاء النسوة وجمالهن .

وقد كان المتنبي دقيقًا في قوله : (عاطلاً من مطوق) وعدوله عن قوله : عاطلاً أو مطوق ؛ لأن التعبير الأول يدل على أن نظره قد وقع عليهن بدليل التشبيه في قوله : (وأجياد غزلان) ؛ لأنه لو لم يقع نظره عليهن ما استطاع أن يصفهن بهذا التشبيه ، فالتشبيه يدل على أن نظره قد وقع عليهن ، إلا أن قوله : (فلم أتبين عاطلاً من مطوق) ينفي أن تكون النظرة نظرة المتفحص المتأمل المدقق في جمال النسوة ، ولو قال : فلم أتبين عاطلاً أو مطوق ، لناقض نفسه ؛ لأن هذا التعبير يدل على عدم

---

(١))الجيد :العنق وموضع القلادة ، وجمعه أجياد ، وجيود (المعجم الوسيط تأليف : إبراهيم مصطفى ـ أحمد الزيات ـ حامد عبد القادر محمد النجار) ت مجمع اللغة العربية ١ / ١٥٠ ط دار الدعوة .

(٢) العاطل : عطلت المرأة ، وتعطلت : إذا خلا جيدها من القلائد (مختار الصحاح ١ / ١٣٥) .

(٣) المطوق : الطوق حلى يجعل في العنق ، وكل شيء استدار فهو طوق (ينظر العين ٥ / ١٩٤) .

(٤) ينظر التبيان في شرح الديوان ٢ / ٣١٢

رؤيتهن مطلقًا ، والتشبيه يدل على رؤيتهن ، ومن هنا كان المتنبي دقيقًا في تعبيره .
وبعد أن عبر المتنبي عن عفته ضمنًا عن طريق الوصف والتشبيه ، جاء التصريح ليؤكد هذه العفة في قوله :

وما كل من يهوى يعف إذا خلا عفافي ويرضى الحب والخيل تلتقي

وقد جمع المتنبي هنا بين الحديث عن العفة والحديث عن الحرب في قوله : (والخيل تلتقي) ، وعن مناسبة الحديث عن الحرب مع العفة هنا يقول ابن جني " كلمته وقت القراءة في معنى هذا البيت ، فقال : المرأة من العرب تريد من صاحبها أن يكون مقدامًا في الحرب ، فترضى حينئذٍ عنه[١] " .

وقد جاءت جملة (ويرضي الحب) معطوفة على جملة (يعف إذا خلا) لما بين الجملتين من التوسط بين الكمالين ؛ لاتفاقهما في الخبرية لفظًا ومعنى ، فبينهما من التناسب ما يسوغ العطف ، وهذا العطف يدل على جمع المتنبي بين الأمرين : العفة ، وإرضاء المحبوب .
ومن خلال ما سبق في حديث المتنبي عن عفته نرصد الآتي :

- أسلوب الكناية أكثر الأساليب البلاغية التي استخدمها المتنبي في إبراز عفته ، وهو بذلك يبرز العفة المعنوية بأدلتها المادية المحسوسة ، وهذا أدعى إلى التصديق والتأثير .
- يتكئ المتنبي في الحديث عن عفته على أسلوب الوصف الذي يبرز الجمال والمفاتن ، التي تدعو إلى الميل والرغبة في النساء ، وأمام هذا الجمال ، وتلك المفاتن يبرز قوة عفته التي تقف حائلاً بينه وبين الوقوع فريسة لتلك المفاتن ، وهذا أدل على قوة العفة من الحديث عنها مجردًا من الوصف.
- يميل المتنبي في حديثه عن العفة ـ غالبًا ـ إلى الأسلوب الحقيقي المباشر ، ويتخلى عن المبالغات وعن الصور الخيالية ، وهذا مما يتلاءم مع طبيعة الصفة التي يتحدث عنها ، بخلاف حديثه عن فصاحته وشجاعته ، فقد كان حديثًا مليئًا بالمبالغات والصور الخيالية .
- غالبًا ما يقرن المتنبي بين الحديث عن الشجاعة والعفة ، ولعل هذا يشير إلى أن الفارس الشجاع لا بد أن يتحلى بالعفة ؛ لأن الشجاعة بدون العفة لا قيمة لها ، ويشير ـ أيضًا إلى أن المتنبي كان لا تشغله المرأة عن القتال فقد كان شغفه وحبه كله في خوض المعارك .

---

(١) الفسر ج ٣ / المجلد الثاني ٤٨٣

رابعًا : بلاغة المتنبي في وصفه لمكانته ومنزلته : -

كان المتنبي يرى نفسه في مكانة عالية ، ومنزلة رفيعة لا يصل إليها أحد ولا يستطيع أن يزحزحه منها أحد ، فهو عند المنافسة ليس شاعرًا ، وإنما هو نجم في السماء ، وصخرة ثابتة لا تحركها عن مكانها السيول الجارفة ؛ وهو عند المقارنة مع أهل زمانه ذهب في وسط الرغام ، وهو دائمًا يرى نفسه في برج عاجي ، ويرى غيره في أدنى درجات هذا البرج ، وهذا هو سر نبرة التحقير ، والتصغير الشائعة في ديوانه ، ومما جاء من حديث المتنبي عن مكانته ومنزلته قوله[١] :

أنا صَخرَةُ الوادي إذا ما زُوحمَتْ وإذا نَطَقْتُ فإنّني الجَوْزاءُ[٢]
وإذا خَفِيتُ على الغَبيّ فَعَاذر أنْ لا تَراني مُقْلَةٌ عَمْيَاءُ

فقد جاء هذان البيتان في قصيدة مدح بها المتنبي أبا علي هارون بن عبد العزيز الأوراجي الكاتب ، وقد بدأها بقوله :

أمِنَ ازْدِيارَكِ في الدُّجى الرُّقَبَاءُ إذْ حَيثُ كنتِ مِنَ الظّلامِ ضِياءُ

والمتنبي هنا يتحدث عن ذاته ويبين مكانتها وسط الزحام والمنافسة ، وقد استخدم ضمير الذات فجاء المسند إليه معرفًا بالضمير(أنا) الذي تكمن فيه مظاهر الفخر والكبرياء ، والاعتداد بالذات ، والظهور في صورة متفردة عن غيرها من الأقران .

وقد جاء هذا الضمير مشبها ، وجاء المشبه به في قوله : (صخرة الوادي) ، وقد كان المتنبي دقيقًا في تشبيه نفسه بصخرة الوادي ، دون غيرها أو دون الاكتفاء بلفظ الصخرة ؛ لأن صخرة الوادي أشد أنواع الصخر صلابة ، وفي ذلك يقول العكبري " خص صخرة الوادي لصلابتها بما يرد عليها من السيول ، يريد : إنني في الشدة كشدة الصخر[٣] ".

وتلمح ـ أيضًا ـ في اختيار صخرة الوادي ووقوعها مشبهًا به كثرة الصراعات والعداوات التي تحاول أن تزيح المتنبي من مكانته ، وتزحزحه عن منزلته العالية ، هذه العداوات التي لا تجد أمامها إلا قوة وثباتًا لا تزحزحه القوى الأخرى مهما كثرت ، كما لا تزحزح صخرة الوادي قوة السيول الجارفة .

وفي التقييد بالشرط والتعبير بإذا في قوله : (إذا ما زوحمت) دليل على أن محاولة إزاحة المتنبي من مكانته أمر متحقق ومتكرر بكثرة وذلك لما تفيده إذا من الدلالة على تحقق الأمر ، والقطع بوقوعه ، فهي تشترك مع إن في كونهما للشرط في الاستقبال ، ولكنهما يفترقان في شيء ، وهو أن الأصل في (إن) أن لا يكون الشرط فيها مقطوعًا بوقوعه ، أما إذا فالأصل أن يكون الشرط فيها مقطوعًا بوقوعه[٤] .

وكما استخدم المتنبي (إذا) للدلالة على تحقق الزحام والمنافسة استخدم (إذا) في قوله : (وإذا نطقت) للدلالة على أن النطق بالشعر أمر متحقق لا شك فيه ، وهو واقع من المتنبي بكثرة ، وهذا مما لا يشك فيه أحد ، أو ينكره منكر .

وكما عقد المتنبي في الشطر الأول تشبيهًا يُظهر مكانته ومنزلته عند الزحام ، عقد في الشطر الثاني تشبيها يُظهر مكانته ومنزلته عند النطق وذلك في قوله : (وإذا نطقت فإنني الجوزاء) وقد جاء التشبيه مصطبغًا بصبغة التوكيد فلم يقل المتنبي فأنا الجوزاء ، وإنما جاء بإنّ فقال : (فإنني الجوزاء) وفي هذا دلالة على قوة ثقة المتنبي في نفسه وشعره .

والتشبيه بالجوزاء يضع المتنبي في مكانة عالية ، ومنزلة رفيعة بين الشعراء ؛ لأن في التشبيه بالجوزاء تكمن عدة معانٍ ، منها علو المنزلة ، والإمداد بالنفع ، والاهتداء به ، والاقتباس من فضله وعلمه ، لأن المنجمين كانوا يرون أن الجوزاء وصاحبه عطارد يدلان على البلاغة والنطق ، فكذلك

---

(١) الديوان ١٢٥ ، ١٢٦
(٢) الجوزاء : نجم يقال : إنه يعترض في جوز السماء ، والجوزاء من بروج السماء (لسان العرب ٥ / ٣٢٩)
(٣) التبيان في شرح الديوان ١ / ٢٨
(٤) ينظر الإيضاح ١ / ٨٨

المتنبي يُستمد من فصاحته وعلمه . وبالجمع بين كل هذه المعاني التي تستمد من الجوزاء تجد أن المتنبي أراد أن يثبت لنفسه علو المنزلة في الفصاحة والبلاغة ، وبلوغه فيها مكانة ومنزلة لا يزاحمه فيها أحد .

وقد زاوج المتنبي بين الشطرين في البيت فشرط في البيت الأول شرطًا وهو قوله :(إذا ما زوحمت) وشرط في الشطر الثاني شرطًا وذلك في قوله : (وإذا نطقت) إلا أنه أخر الشرط في الشطر الأول ، وقدم الشرط في الشطر الثاني ؛ لأن الشرط الأول قيد للمشبه به : صخرة الوادي ، أما الشرط الثاني فقد جاء قيدًا للمشبه الذي هو المتنبي . ويأتي الشرط الثالث في قوله : (وإذا خفيت على الغبي فعاذر) ؛ ليدل على أن مكانة المتنبي ظاهرة ومعلومة ، لا تخفى إلا على الغبي الجاهل ، وقد استخدم في الشرط (إذا) ، ليدل على أن الذين ينكرون مكانته كثيرون ، لكثرة الحساد والحاقدين ، فخفاء مكانة المتنبي عند هؤلاء أمر مقطوع به ، ومجزوم بوقوعه . وفي تقييد الفعل (خفيت) بالجار والمجرور (على الغبي) دلالة على أن من ينكر مكانة المتنبي ، ومنزلته ، ليس لعيب في المتنبي ، وإنما العيب في جهل هذا المنكر الذي لا يدرك هذه المنزلة الظاهرة ، والمكانة الواضحة ، وفي هذا القيد ـ أيضًا ـ دلالة على أن مكانة المتنبي ، ومنزلته لا تخفى على أصحاب الفطنة والذكاء .

وقد التمس المتنبي العذر لهذا الغبي في قوله : (فعاذر) ثم بين العلة في العذر في قوله : (أن لا تراني مقلة عمياء) فقد شبه عن طريق الاستعارة التمثيلية هذا الجاهل الذي ينكر قدره ، وفضله ، ومكانته بالأعمى ، فكما أن الأعمى يعذر في عدم رؤيته للأشياء ، فكذلك الجاهل الغبي يعذر في عدم إدراكه لمكانة المتنبي ومنزلته ، وفي هذا يقول العكبري : " يريد أنه إذا خفي مكانه على الغبي ، وهو الجاهل الذي لا يعرف شيئًا ، ولم يعرف قدري ، ولم يقر بفضلي ، فأنا أعذره ؛ لأن الجاهل كالأعمى ، والمقلة العمياء إن لم تر فهي في عذر لعماها ، وكذلك الجاهل الذي يجهلني ويجهل قدري [(١)]" . وفي تنكير المسند إليه (مقلة) في قوله : (مقلة عمياء) تقليل من شأن هذه المقلة التي لا ترى مكانة المتنبي ومنزلته ، وهذا التقليل من شأن المقلة يدل على عظم مكانة المتنبي ومنزلته ، فهي مكانة لا تخفى على أصحاب الحواس السليمة .

ومن حديث المتنبي عن مكانته ومنزلته قوله(٢) :

وما أنا مِنْهُمُ بالعَيشِ فيهم ولكنْ مَعدِنُ الذّهَبِ الرَّغامُ[(٣)]

فقد تحدث المتنبي قبل هذا البيت عن أهل عصره وبيَّن صفاتهم بقوله :

ودَهْرٌ ناسُهُ ناسٌ صِغارٌ وإنْ كانتْ لهمْ جُثَثٌ ضِخامُ

ثم جاء هذا البيت ليثبت به المتنبي أنه مختلف تمام الاختلاف عن هؤلاء الناس الذين تحدث عنهم ، ووصفهم بأنهم صغار الأخلاق ، وضخام الأجسام . ففي قوله : (وما أنا منهم) سُلِّطَ النفي على المسند إليه ، وعرف المسند إليه بضمير النفس (أنا) ليجعل من المتنبي نوعًا فريدًا في قومه، لا يتصف بصفاتهم . فقد نفى كونه منهم في الصفات والطباع إلا أنه لم ينف كونه منهم في النسب والعشيرة .

ولما كان النفي السابق يوهم أن المتنبي يتبرأ من قومه ومن وجوده بينهم جاء الاحتراس[(٤)] في قوله : (بالعيش فيهم) ليدفع هذا الوهم وليبين أن التبري هنا ليس من المكان ، وإنما التبري هنا من الأخلاق والصفات التي انطبع عليها القوم .

ولما كان المتنبي في قوله : (و ما أنا منهم بالعيش فيهم) يدعي أمرًا غريبًا قد يُكذّب فيه ، ويُتهم بالتناقض في القول جاء قوله : (ولكن معدن الذهب الرغام) بمثابة الدليل على صحة ما يدعيه المتنبي ، فمع أن الذهب من التراب إلا أنه قد انفرد بأوصاف جعلته جنسًا آخر غير التراب ، ففي البيت تشبيه ضمني شبه فيه المتنبي تفرده عن قومه ، واختلافه عنهم في الصفات باختلاف الذهب في أوصافه عن

---

(١) التبيان في شرح الديوان ٤ / ٢٨

(٢) الديوان ١٠١

(٣) الرغام في الأصل : التراب (ينظر اللسان ١٢ / ٢٤٦)

(٤) الاحتراس : أن يؤتى في كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفع ذلك الوهم (الإيضاح ١ / ٣١٠) .

التراب مع أنه من التراب . وقد استخدم المتنبي هنا التشبيه الضمني[١] ؛ لأن المقام مقام إنكار ، والتشبيه الضمني يكثر استخدامه في مقامات الإنكار . يقول الإمام عبد القاهر : (وهذا أمر غريب ، وهو أن يتناهى أجزاء الجنس في الفضائل الخاصة به ، إلى أن يصير كأنه ليس من ذلك الجنس ، وبالمدعى له أن يصحح دعواه في جواز وجوده على الجملة إلى أن يجيء إلى وجوده في الممدوح[٢]".

فالمتنبي بهذا التشبيه يحاول أن يثبت عن طريق الحجة والبرهان سموه وتفرده واختلافه في صفاته عن أبناء قومه ، وقد راعى في المشبه إظهار قوة الاختلاط ، وذلك باستخدامه لفظ (العيش) ثم التعبير بالجار والمجرور الدال على الظرفية التي تفيد التمكن والاستقرار في قوله : (فيهم) .

فكل هذا التمكن والاستقرار وقوة الاختلاط كان يحتاج إلى حجة وبرهان قوي يثبت صحة ما يدعيه المتنبي من مخالفته قومه في صفاتهم مع قوة اختلاطه بهم فكان التشبيه الضمني من أقوى وأنجح الأساليب في أداء المعنى المراد . وإذا كان المتنبي في البيت السابق قد أبرز مكانته ومنزلته العالية خلال التشبيه بالجوزاء ، فإنه في موضع آخر يتخذ من التشبيه بالثريا وسيلة لإبراز هذه المكانة والمنزلة ، وذلك في قوله[٣] :

كم تَطْلُبُونَ لَنَا عَيْبًا فيُعجِزُكُمْ ... وَيَكْرَهُ اللهُ ما تَأتُونَ وَالكَرَمُ
ما أبعدَ العَيبَ والنّقصانَ منْ شَرَفي ... أنَا الثّرَيّا[٤] وذَانِ الشّيبُ وَالهَرَمُ[٥]

فقد جاء هذان البيتان في قصيدة المتنبي الشهيرة التي يعاتب فيها سيف الدولة ، والتي بدأها بقوله :

وَاحَرّ قَلْبَاهُ ممّنْ قَلْبُهُ شَبِمُ ... وَمَنْ بجِسْمي وحَالي عِندَهُ سَقَمُ

فالمتنبي في قوله : (كم تطلبون لنا عيبًا فيعجزكم) يخاطب ملكًا ويعنفه ، وهذا ما أشار إليه العكبري في قوله : " وهذا تعنيف لسيف الدولة على إصغائه إلى الطاعنين عليه[٦] ". ومخاطبة الملك بهذا الأسلوب يعكس مدى اعتزاز المتنبي بنفسه ، واعتداده بشخصيته ، فهو " يخاطب الملك مخاطبة المحبوب والصديق مع الإحسان والإبداع ، وهو مذهب له تفرد به ، واستكثر من سلوكه اقتدارًا منه ، وتبحرًا في الألفاظ والمعاني رفعًا لنفسه عن درجة الشعراء ، وتدريجًا لها إلى مماثلة الملوك[٧] " . وفي دخول (كم) التي تفيد الكثرة على الفعل المضارع (تطلبون) ما يدل على كثرة الطلب والبحث والتنقيب عن العيب الذي يطعن به الأعداء في المتنبي ، والذي يستطيعون به أن يحطوا من مكانته العالية ، ومنزلته الرفيعة . وبعد كل هذا العناء في البحث والطلب يأتي الفعل (فيعجزكم) ليفيد فشل البحث ، ويظهر المطلوب في صورة المستحيل الذي لا يمكن تحقيقه. وفي قوله :

ما أبعد العيب والنقصان من شرفي ... أنا الثريا وزان الشيب والهرم

وقد جاء هذا البيت مفصولاً عمّا قبله لكمال الاتصال؛ لأنه جاء ليؤكد ما تضمنه البيت السابق من خلو المتنبي من العيب الذي ينقص من قدره ، أو يزحزحه عن مكانته . وقد استخدم المتنبي في الشطر الأول فعل التعجب في قوله : (ما أبعد العيب والنقصان من شرفي) ؛ ليدل بذلك على بعد المسافة بينه وبين العيب والنقصان ؛ وليبين أن هذا البعد وصل إلى درجة عظيمة ، وحالة غريبة يتعجب منها ، ويُندهش من أمرها . وقد عطف المتنبي لفظ (النقصان) على (العيب) ليدل بذلك على بعده عن

---

(١) التشبيه الضمني : هو تشبيه لا يوضع فيه المشبه والمشبه به في صورة من صور التشبيه المعروفة بل يلمحان في التركيب لإفادة أن الحكم الذي أسند إليه المشبه ممكن (جواهر البلاغة تأليف السيد أحمد الهاشمي ـ ت حسن النجار محمد ـ ص٢٢٥ ـ مكتبة الآداب ـ ط ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م) .
(٢) الأسرار / ١٢٣
(٣) الديوان ٣٣٣
(٤) الثريا : من الكواكب ، سميت بذلك لغزارة نوئها ، وقيل : سميت بذلك لكثرة كواكبها ، مع صغر مرآتها ، فكأنها كثيرة العدد مع ضيق المحل (اللسان ١٤ / ١١٢) .
(٥) الهرم : هرم هرمًا من باب تعب : كبر وضعف (المصباح المنير ٢ / ٦٣٧) .
(٦) التبيان ٣ / ٣٩٢
(٧) يتيمة الدهر ص ١٣٩ .

أي شيء ينقص من قدره ومنزلته سواء أكان هذا الشيء أمرًا كبيرًا أم كان أمرًا سهلاً يسيرًا . وكل هذا يُظهر مدى اعتزاز المتنبي بمكانته ومنزلته وقدره في نظر نفسه .

وقد جاء الشطر الثاني (أنا الثريا .. إلخ) مفصولاً عن الشطر الأول ؛ لما بين الشطرين من كمال الانقطاع ؛ لأن الشطر الأول اشتمل على الأسلوب الإنشائي غير الطلبي ، وهو التعجب ، فهو إنشائي لفظًا ومعنى ، والشطر الثاني خبر لفظًا ومعنى .

ويأتي التشبيه في الشطر الثاني في قوله : (أنا الثريا) ليؤكد مضمون الكلام السابق، فإذا كان الكلام السابق قد دل على بُعد المسافة بين المتنبي وبين العيب والنقصان ، فإن التشبيه جاء ليؤكد هذا المضمون ، ولكن بالصورة الحسية التي تنقل المعنويات إلى عالم المحسوسات ، وتخرج غير الواضح في صورة الواضح الجلي الذي لا ينكر . فقد شبه المتنبي نفسه في بعده عن العيب والنقصان بالثريا في بعدها عن الشيب والهرم .

وقد بالغ المتنبي في قوة الشبه بينه وبين الثريا ، وذلك بحذف أداة التشبيه فلم يقل : أنا كالثريا ، وإنما جاء التشبيه خاليًا من الوسائط بين المشبه والمشبه به ، وفي هذا إظهار لقوة الشبه بين المتنبي والثريا .

وقد اختار المتنبي الشيب والهرم ؛ لأن العقل لا يمكن أن يدعي اتصاف الثريا بهذين الوصفين ، فكما لا يمكن أن يدعي الإنسان ذلك ، فكذلك لا يمكن لعاقل في نظر المتنبي أن يلحق به صفه تعيبه ، أو شيئًا ينقص من قدره ، فهو بعيد كل البعد عن العيب والنقصان ، وهذا غرور وإعجاب زائد عن الحد من المتنبي بنفسه ، فلا يخفى على أحد ما في هذا المدح الذاتي من المبالغة المفرطة ، فليس هناك إنسان يخلو من العيب إلا من عصمه الله عز وجل ، وهذه المبالغة من المتنبي في خلوه من العيب والنقصان لا تليق بمسلم يعرف أن الكمال لله وحده .

ويمكن أن يكون هناك مخرج للمتنبي ، وهو أنه لا يقصد خلوه من جميع العيوب التي يمكن أن تلحق البشر ، وإنما يقصد خلوه من العيوب الظاهرة التي انتشرت في عصره ، والتي اتصف بها معظم الناس في هذا العصر ، وبهذا تكون المبالغة هنا مقبولة في مدح الذات .

ومن خلال ما سبق من حديث المتنبي عن مكانته ومنزلته يتضح أن التشبيه الذي يستمد عناصره من الطبيعة سمة من سمات المتنبي في الحديث عن مكانته ومنزلته ، فقد شبه نفسه (بالثريا) وذلك في قوله : (أنا الثريا وذان الشيب والهرم)، وشبه نفسه بالجوزاء في قوله :(وإذا نطقت فإنني الجوزاء) ، وشبه نفسه بالصخرة في قوله : (أنا صخرة الوادي) ، وكل هذه التشبيهات المستمدة من الطبيعة أراد أن يبرز بها المتنبي منزلته ومكانته في صور حسية مشاهدة تبين مقدار الصفة ، ودرجتها ، وقوتها . ومن الظواهر - أيضًا - في حديث المتنبي عن مكانته ومنزلته استخدام ضمير النفس ، وتكراره كما في قوله : (أنا الثريا) ، وقوله : (أنا صخرة الوادي) وقوله : (فإنني الجوزاء) وهذا يشير إلى إحساس المتنبي بتفرده ، وعلوه على أهل زمانه ،واعتداده الزائد بشخصيته ومكانته .

خامسًا : بلاغة المتنبي في وصفه لعلو همَّته وطموحه : -

تحدث المتنبي عن علو همَّته وطموحه ، وقد بين أن همته عالية يهون أمامها كل صعب ، وطموحاته عالية لا تقف عند حد ،ولهذا الطموح العالي كان المتنبي شخصية لا ترضى بالقليل ، وكان - دائمًا - يشعر بأنه لم يصل إلى المكانة التي يستحقها ، وأن الحياة لم تضعه في المكانة التي تليق به ، ومن هنا كان كثير الشكوى من الأيام والليالي ، وكان - دائمًا - ساخطًا على حاله ، نادبًا حظه ، ولعل طموحه العالي وهمته القوية هي التي جعلته لا يستقر في مكان ، فأخذ يبحث عن هذا الطموح من بلد إلى بلد ، ومن ملك إلى ملك ، تظهر هذه الهمة العالية في قوله(١) :

وَلَيْتَكَ تَرْعاني وَحَيرَانُ(٢) مُعرِضٌ(٣) فتَعْلَمَ أنّي مِنْ حُسامِكَ حَدّهُ
وَأنّي إذا باشَرْتُ أمرًا أُريدُهُ تَدانَتْ أقاصِيهِ وَهَانَ أشَدُّهُ
إذا كنتَ في شَكٍّ من السّيفِ فابْلُهُ فإمّا تُنَفّيهِ وَإمّا تُعِدُّهُ
وَمَا الصّارِمُ(٤) الهِندِيُّ إلاّ كَغَيرِهِ إذا لم يُفارِقْهُ النِّجادُ(٥) وَغِمْدُهُ(٦)

فهذه الأبيات جاءت في قصيدة يمدح بها المتنبي كافور الإخشيدي ، وقد بدأها بقوله :

أوَدُّ مِنَ الأيّامِ مَا لا تَوَدُّهُ وَأشكُو إلَيهَا بَيْنَنَا وَهيَ جُنْدُهُ

وفي هذه الأبيات يخاطب المتنبي كافور الإخشيدي مظهرًا له غفلته عن إدراك همته العالي،وملفتًا نظره إلى هذه الهمة القوية التي يتصف بها المتنبي .

وأول ما يقابلك في هذه الأبيات أسلوب التمني في قوله : (وليتك) والمخاطب هنا كافور ، والمتمني هو المتنبي ، وفي أسلوب التمني هنا إظهار لرغبة المتنبي القوية في أن يفيق كافور من غفلته ، ويلتفت إلى هذه الهمة العالية التي يتصف بها المتنبي ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن في التمني استبعادًا من المتنبي لأن يفيق كافور من غفلته هذه . ويعرض المتنبي بغفلة كافور عن إدراك همته بقوله : (فتعلم) فهو بهذا الفعل يلمح بجهل كافور ، وعدم فطنته ؛ لأنه في نظر المتنبي لو كان عنده أدنى علم أو فطنة لأدرك هذه الهمة العالية التي لا تخفى على أحد ، هذا ما قصده المتنبي من وراء هذا الفعل (فتعلم) . ولما أراد المتنبي أن يصف هذه الهمة العالية في نفسه استخدم التشبيه في قوله : (فتعلم أني من حسامك حده) فقد شبه مضاءه في الأمور ، وعلو همته في قضائها بحد السيف ، وفي حد السيف تجد القوة ، والصلابة ، وسرعة القطع ، وكلها صفات أرادها المتنبي لنفسه ليثبت بها علو همته ، وصبره وجلده ، وقوته. وبعد أن استخدم المتنبي التشبيه في إظهار علو همته وقوته جاء التصريح ليؤكد مضمون التشبيه وذلك في قوله :

وأني إذا باشرت أمرًا أريده تدانت أقاصيه وهان أشده

وهناك رواية أخرى (وأني إذا حاولت) وهي أبلغ في الدلالة على قوة الهمة من قوله :(وأني إذا باشرت) ؛ لأن لفظ المحاولة فيه إظهار أنه بأقل مجهود يستطيع أن يحقق ما يريد ، فمجرد المحاولة كافٍ لتحقيق ما يتطلع إليه . وقد جاء التنكير في قوله : (أمرًا) ليدل على أنه لا يطلب إلا معالي الأمور ، والعظيم منها ، فهو لا يطلب الأمر الهين ولا يقصده .

ويأتي التضاد في قوله : (تدانت أقاصيه) وقوله : (وهان أشده) ليضفي على السياق مزيدًا من إظهار هذه الهمة العالية ، فهي همة تحول الأمور عكس اتجاهها ، فمعها تقصر المسافات البعيدة ،ويتحول البعيد إلى قريب ، والصعب إلى لين سهل .

---

(١) الديوان ٤٥٥ ، ٤٥٦

(٢) حيران : ماء بالشام بالقرب من سلمْيَة على بعد يوم منها (ينظر التبيان في شرح الديوان ٢ / ٢٦).

(٣) معرضي : يقال : أعرض لك الشيء ، أي بدا وظهر (تهذيب اللغة ١ / ٢٩٢) .

(٤) الصارم : السيف القاطع (ينظر لسان العرب ١٢ / ٣٣٥)

(٥) النجاد: حمائل السيف (المعجم الوسيط ٢ / ٩٠٢) .

(٦) الغمد : أغمدت السيف : أدخلته في غمده ، أي غلافه (العين ٤ / ٣٩٥).

ويأتي البيت الثالث ليكشف عن طريق التلميح سوء العلاقة بين كافور والمتنبي وذلك في قوله :

إذا كنت في شك من السيف فابله فإما تنفيه وإما تعده

فأسلوب الشرط في قوله : (إذا كنت في شك من السيف فابله) يكشف عن الثقة المفقودة بين المتنبي وكافور ، فكافور لا يثق في المتنبي ، والمتنبي متحقق من شك كافور في قدراته ، وعدم ثقته فيه ، بدليل استخدامه (إذا) الدالة على التحقق ، وفي رواية أخرى : (وإن كنت في شك من السيف) والرواية الأولى أبلغ ؛ لأن ثقة كافور في المتنبي مفقودة ومتحققة ، بدليل إغفاله لهمته وشجاعته، وهذا يتناسب معه (إذا) الدالة على التحقق ، لا (إن) الدالة على الشك .

والمتنبي هنا في هذا البيت يشبه نفسه بالسيف ، إلا أن التشبيه في هذه المرة جاء عن طريق الاستعارة التصريحية ، وكأن المتنبي هنا يعرض بكافور الذي شك في قدراته دون أن يجربه ، فالمتنبي كالسيف في حدته وصلابته وسرعة مضائه إلا أن كافور يغفل هذه الحدة والقوة والصلابة ، وعلو الهمة لأنه لم يجربه ، ولو جربه لأعده ، وجهزه حتى يتخذه سلاحًا قويًا يواجه به عدوه .

وإني أشتم رائحة التعريض القوي بكافور في هذا الأمر في قوله : (فابله) وكأن المتنبي بهذا الأمر يتهم كافور بانعدام النظر ، وقلة الخبرة عند نظرته للأشياء ، فهو لا يستطيع أن يتعرف بخبرته وحسه ونظره على هذه الهمة العالية ، لذا فهو يطلب منه أن يختبره ويجربه كما يختبر السيف ، ثم يترك له الحكم في قوله : (فإما تنفيه وإما تعده) ، وفي هذا التعبير دليل على ثقة المتنبي في همته وشجاعته وقوته .

وقد تدرج المتنبي في تشبيه نفسه ، فقد بدأ بتشبيه نفسه بحد السيف في قوله : (فتعلم أني من حسامك حده) ثم ثنى بتشبيه نفسه بالسيف في قوله : (إذا كنت في شك من السيف فابله) ثم ثلث بتشبيه نفسه بنوع خاص من السيوف وهو الصارم الهندي في قوله :

وما الصارم الهندي إلا كمثله إذا لم يفارقه النجاد وغمده

ففي هذا البيت تشبيه ضمني قصد به المتنبي إقامة الدليل المادي على أن كافور لم يختبره ، ولم يتعرف على علو همته وشجاعته ، لذا فهو يسوي بينه وبين غيره ، وبذلك يكون المتنبي شبيهًا بالسيف الصارم الهندي الذي هو من أجود أنواع السيوف ، والمعروف بقوته ، وصلابته ، والذي لم يختبر فهو في هذه الحالة كغيره من باقي السيوف ، لا يظهر تفوقه ، ولا تبرز صفاته ؛ لأنه لم يخرج من غمده ونجاده .

ومن حديث المتنبي عن علو همته قوله[١] :

وَفي الجسْمِ نَفسٌ لا تَشيبُ بشَيْبِهِ وَلَوْ أنّ مَا في الوَجْهِ مِنهُ حِرَابُ[٢]
لهَا ظُفُرٌ إن كَلَّ ظُفْرٌ [٣] أُعِدّهُ وَنَابٌ إذا لم يَبْقَ في الفَمِ نَابُ
يُغَيّرُ مني الدّهرُ ما شَاءَ غَيرَهَا وَأبْلُغُ أقصَى العُمرِ وَهيَ كَعابُ[٤]

فهذه الأبيات جاءت في قصيدة يمدح بها المتنبي كافور الإخشيدي ، وقد بدأها بقوله :

مُنًى كُنّ لي أنّ البَياضَ خِضابُ فيَخفَى بتَبييضِ القُرونِ شَبَابُ

وفي هذه الأبيات يتحدث المتنبي عن علو همته وعزيمته ، ولإظهار هذه الهمة العالية ، والعزيمة القوية عقد المتنبي مقارنة بين نفسه وجسمه ، وقدم الجسم على النفس فقال : (وفي الجسم نفس) مع أن الحديث يدور حول النفس ؛ لأن وجود النفس القوية داخل الجسم الضعيف دليل على علو النفس وعلو همتها ، وقوة عزيمتها ؛ لذا يقول العكبري " والمعنى يريد أنه كان يتمنى الشيب والشيب فيه الضعف والعجز ، فذكر أن همته وعزيمته لا تشيب ، ولا يدركها العجز والضعف بشيب رأسه ، ولو كانت

---

(١) الديوان ٤٧٨
(٢) الحربة : الآلة دون الرمح ، وجمعها حراب (اللسان ١/ ٣٠٣)
(٣) الظفر : الفوز بما طالبت (ينظر العين ٨ / ١٥٨)
(٤) الكعاب بالفتح : المرأة حين يبدو ثديها للنهود (اللسان ١ / ٧١٩)

الشعرات البيض التي في وجهه حرابًا ، وهذا من أحسن المعاني ، وتلخيص الكلام : أن همتي قوية لا تضعف[١] " . وقد جاء المسند إليه (نفس) نكرة ؛ للدلالة على عظم هذه النفس وعلو همتها ، فهي نفس عظيمة لا تضعف ، وقوية لا تلين أمام صعوبة المطالب ووعورتها ، ولا تخضع أو تنكسر أمام أحداث الزمان . وقد عبر المتنبي بالشيب عن الضعف ، وذلك لأنه يلزم من الشيب الضعف ، فهو كناية عنه كما في قوله تعالى : { واشتعل الرأس شيبا[٢]} فالشيب في الآية كناية عن شدة الضعف . والشيب في البيت منفي عن النفس في قوله : (لا تشيب) وهذا النفي كناية عن قوة العزيمة ، وعلو الهمة داخل النفس ، فالضعف منفي عن النفس ومثبت للجسم في قوله : (بشيبه) ؛ لأن الضمير هنا عائد إلى الجسم الذي دب فيه الضعف ، ووهن فيه العظم . وتجد جمال المقابلة التي تُظهر قوة النفس ، وعلو همتها أمام ضعف الجسم ووهنه في قوله : (لها ظفر إن كل ظفر) فهي مقابلة تصور قوة الهمة والعزيمة داخل نفس المتنبي ، وكأن هذه القوة داخل النفس تعوض الضعف الذي دب في البدن. ولما كان هدف المتنبي إثبات الهمة العالية ، والعزيمة القوية داخل نفسه ، جسَّد المتنبي هذه النفس وجعل لها نابًا في قوله : (وناب) فشبه المتنبي عن طريق الاستعارة هذه النفس بالحيوان المفترس ذي الأنياب القوية الحادة ، وهو تصوير يبرز قوة النفس وحدتها،وعلو همتها ، وسرعة مضائها في تحقيق الأمور .

وقد زاوج المتنبي ببين الشرطين في البيت ، فقد اشترط في الشطر الأول شرطًا في قوله : (إن كل ظفر) ، ثم اشترط في مقابله في الشطر الثاني شرطًا في قوله : (إذا لم يبق في الفم ناب) وهي بلاغة عالية ، فبعد أن جعل الإمام عبد القاهر المزاوجة[٣] بين معنيين في الشرط والجزاء معًا من النظم الذي يتحد في الوضع ، ويدِقُّ فيه الصُّنع قال " وإذ قد عرفت هذا النمط من الكلام ، وهو ما تتحد أجزاؤه حتى يوضع وضعًا واحدًا ، فاعلم أنه النمط العالي والباب الأعظم ، والذي لا ترى سلطان المزية يعظم في شيء كعظمه فيه " [٤] . وهذان الشرطان في البيت يحترس بهما المتنبي عن توهم غير المراد ، فلو لم يأت بهذين الشرطين لتوهم السامع أن قوة النفس ، وظفرها ، وعلو همتها معها قوة في الجسم ،فالشرطان ينفيان هذا التوهم ويزيلانه ، ويثبتان أن هذه القوة والهمة العالية في النفس يصحبها ضعف ووهن شديد في الجسم،وهذا أمدح لقوة النفس وعلو همتها.ويأتي البيت الثالث ليؤكد به المتنبي مضمون البيتين السابقين ، وذلك في قوله :

يغير مني الدهر ما شاء غيرها وأبلغ أقصى العمر وهي كعاب

فالمتنبي في هذا البيت يؤكد ما تضمنه البيتان السابقان من الحديث عن قوة نفسه ، وعلو همته ، وشدة عزيمته. وقد بدأ البيت بهذه الجملة الفعلية (يغير مني الدهر) وقد قدم الجار والمجرور (مني) على الفاعل (الدهر) وفي هذا دلالة على أن غرض المتنبي الأول هو تسليط الضوء على التغيير الحاصل له ، وأثر الزمان فيه ، وليس المقصود الأول هو كون التغيير حاصلاً من الدهر .

ويأتي الاستثناء بعد العموم في قوله : (ما شاء غيرها) ، والمتنبي بهذا الاستثناء من العموم يُظهر قوة النفس وعلو همتها أمام قوة الزمن ، فالمتنبي لا يستطيع أن ينكر أثر الأيام في تغيير كل شيء فيه ، ولكنه يستثني من هذا التغيير نفسه فهي قوية صلبة أمام أحداث الزمان ونكباته ، لا تغيرها الأحداث ، ولا يضعفها طول الأيام والليالي، فهي ليست تابعة للجسم في ضعفه ، بل إنها تزداد قوة وعزيمة ، وهمة مع ضعف الجسد ، ومع مرور الأيام والليالي . هذا ما دل عليه الاستثناء ، وهذا ما قصده المتنبي من ورائه . وفي قوله : (وأبلغ أقصى العمر وهي كعاب) مقابلة بين ضعف الجسم ، وقوة النفس ، وهي مقابلة تظهر نفسًا قويةً ، وهمة عالية في جسد ضعيف ، منهار القوي . وفي هذه المقابلة تأكيد لعدم قدرة الزمن على تغيير هذه النفس على الرغم من قدرته على القضاء على كل قوى البدن ، هذا القضاء والضعف الذي دل عليه التعبير بأفعل التفضيل في قوله : (أقصى العمر). وزيادة في إظهار قوة النفس وعلو همتها استخدم المتنبي التشبيه في قوله : (وهي كعاب)فقد صور النفس بالجارية

---

(١) التبيان في شرح الديوان ١ / ٢٠١

(٢) من الآية { ٤ } سورة مريم

(٣) المزاوجة : أن يزاوج بين معنيين في الشرط والجزاء (الإيضاح ١ / ٣٢٩) .

(٤) دلائل الإعجاز ٩٥

صغيرة السن التي ما زالت في ريعان شبابها .

هكذا استخدم المتنبي الأساليب المتنوعة للكشف عن علو همته وقوة نفسه ، فقد استخدم الكناية والاستعارة والتشبيه وأسلوب الشرط والاستثناء وكلها أساليب متعاضدة ، ومتآزرة فيما بينها لإظهار الهمة العالية ، والعزيمة الصلبة داخل نفس المتنبي .

ومن حديث المتنبي عن علو همته قوله[١] :

وَمن جاهلٍ بي وَهْوَ يَجهَلُ جَهلَهُ وَيَجْهَلُ عِلمي أنّهُ بي جاهِلُ
وَيَجْهَلُ أنّي مَالِكَ الأرْضِ مُعسِرٌ[٢] وَأنّي على ظَهرِ السِّماكَينِ[٣] رَاجِلُ
تُحَقِّرُ عِندي هِمّتي كُلَّ مَطْلَبٍ وَيَقصُرُ في عَيني المَدى المُتَطاوِلُ

فقد جاءت هذه الأبيات في قصيدة قالها المتنبي في صباه وقد بدأها بقوله :

قِفَا تَرَيَا وَدْقَى فَهَاتَا المَخايِلُ وَلا تَخْشيَا خُلْفاً لِما أنَا قَائِلُ

والمتنبي في هذه الأبيات يتحدث عن علو همته وطموحه ، ويتهم من لا يعرف قدره بالجهل ، بل إنه يبالغ في جهل هذا الذي لا يعرف قدره ، ويجهل منزلته ، فيكرر لفظ الجهل ست مرات ما بين اسم الفاعل (جاهل) ، والفعل المضارع (يجهل) وهو بذلك يثبت أن الجهل ثابت ومستمر لهذا الذي يجهل قدره . ومما أخذ على المتنبي هنا تكريره للفظ (يجهل) من غير حسن[٤] ، مما أدى إلى التعقيد اللفظي . وزيادة في إظهار جهل من ينكر منزلة المتنبي ومكانته جاءت الجمل في قوله (وهو يجهل جهله ، ويجهل علمي ، ويجهل أني مالك الأرض) معطوفة بالواو ، للدلالة على تعدد مواطن الجهل ، وقد اتفقت هذه الجمل في الخبرية لفظًا ومعنى ، فحصل بينها نوع من الوصل هو التوسط بين الكمالين.

وقد بالغ المتنبي في الحديث عن علو همته في قوله : (ويجهل أني مالك الأرض معسر) ، فالمتنبي يدعي أنه لو ملك الأرض لكان في نظر نفسه معدمًا ؛ لأن ملك الأرض في نظره أقل من قدره ومنزلته ، فهو في نظر نفسه يستحق أكثر من ذلك .

وأرى أن المتنبي هنا قد خانه التعبير ؛ لأن من يملك الأرض ويرى أنه معدمٌ يُتهم بعدم القناعة ، وعدم الرضا بما أعطاه الله ، بل إن الواجب عليه أن يرضى بما قسم الله له من رزق ، وأن يتوجه بالشكر إلى رازقه . فإذا كان ملك الأرض لا يرضى غرور المتنبي ، ولا يسد فقره فما الذي يرضيه إذًا ؟ إنها مبالغة غير مقبولة من المتنبي .

ويظهر التناقض الغريب في قوله : (مالك الأرض معسر) فالمتنبي بهذا التضاد بين مالك الأرض ومعسر يصور همته العالية ، وطموحاته التي ليس لها حدود ، وغروره الذي لا يرضيه شيء مهما كثر ، و المتنبي بهذا التضاد أوقع نفسه في الاتهام بعدم القناعة والرضا ؛ لأن من لا يقنع بالكثير لا يشكر على القليل . ولا نكاد نخرج من هذه المبالغة غير المقبولة حتى نجد أنفسنا أمام مبالغة أخرى لا تقل عن سابقتها في مجاوزة الحد ، وذلك في قوله : (وأني على ظهر السماكين راجل) ، فالمتنبي يدعي أنه لو كان على ظهر النجمين المعروفين بالسماكين لكان في نظر نفسه كأنه يقف على رجليه .

وهذه المبالغة الثانية تعضد المبالغة الأولى في إظهار علو همة المتنبي وطموحه الذي لا يرضيه شيء ، لذا يقول العكبري في معنى هذا البيت " لا يعلم الجاهل أني إذا ملكت الأرض كلها كنت في حال العسر عند نفسي ، ومقتضى همتي ، وإذا علوت ظهر السماكين كنت راجلا؛ لاقتضاء همتي ما فوق ذلك[٥] " . وقد استخدم المتنبي أسلوب المقابلة بين قوله : (مالك الأرض) وقوله : (على ظهر

---

(١) الديوان ص ٣٤

(٢) عسر الرجل : إذا صار من ميسرة إلى عسرة ، وعسرته أنا أعسره : إذا طالبته بدينك ، وهو معسر ، ولم تنظره إلى ميسرته (مقاييس اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارس بن ذكريا ، ت عبد السلام محمد هارون ٤ / ٣١٩ ط دار الجيل) بيروت ـ لبنان ط ٢ ـ ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م .

(٣) السماكان : نجمان نيران ، أحدهما السماك الأعزل ، والآخر : السماك الرامح ، والرامح لا نوء له وهو إلى جهة الشمال ، والأعزل من كواكب الأنواء ، وهو إلى جهة الجنوب ، وهما في برج الميزان (اللسان ١٠ / ٤٤٣ ، ٤٤٤ بتصرف) .

(٤) يتيمة الدهر ١ / ١١٧

(٥) التبيان ٣ / ١٨٥

السماكين) وهي مقابلة بين المعاني لا الألفاظ ؛ لأن مالك الأرض فيها معنى الحياة السفلية ، وظهر السماكين فيها معنى الحياة العلوية ، وهي مقابلة يكشف بها المتنبي عن علو همته ، وبعد مكانته ومنزلته ، ويبين من خلالها أن طموحاته لا تقف عند حد ، فهو لا يرضي غروره أن يكون مالك الأرض ، ولا يقنع بما دون النجوم . وبعد أن عبر المتنبي عن علو همته وطموحه تعبيرًا ضمنيًا أكد بالتصريح ما عبر عنه بالتلميح وذلك في قوله :

تحقر عندي همتي كل مطلب ويقصر في عيني المدى المتطاول

فهذه الهمة التي تحقر كل مطلب مهما كان صعوبته هي التي جعلت المتنبي معسرًا وهو مالك الأرض ، وهي التي جعلته راجلاً وهو على ظهر السماكين ، فهذا البيت بمثابة التصريح بعد التلميح .

وتجد التقديم في قوله : (تحقر عندي همتي) وقوله : (ويقصر في عيني المدى) يبرز إحساس المتنبي بأن هذه الهمة العالية لا يملكها أحد غيره ، فقد قدم الظرف (عندي) على الفاعل (همتي) في قوله : (تحقر عندي همتي) ، وقدم الجار والمجرور (في عيني) على الفاعل (المدى) في قوله : (ويقصر في عيني المدى المتطاول) ليبين أن هذا التحقير للمطالب الصعبة خاص بالمتنبي ، وأن رؤية البعيد قريبًا من خواص المتنبي ، لأنه يملك من علو الهمة والطموح ، وقوة العزيمة ما لا يملكه غيره .

وقد استخدم المتنبي الفعل المضارع في قوله : (تحقر) وقوله (ويقصر) للدلالة على أن هذا التحقير لكل مطلب صعب ، وهذه الرؤية التي تقصر المسافات البعيدة ، وتقربها متجددة ومستمرة لا يقربها فتور أو كلل ، وهذا هو السر في استخدام صيغة المضارع هنا في البيت ، كما أن صيغة المضارع كما يقول أستاذنا الدكتور أبو موسى : " تحمل الحدث من قلب الزمان الغابر، لتضعه أمام الحاضر الراهن في جلاء،ووضوح،ولهذا تراهم يؤثرون صيغة المضارع عند ذكر الحدث الأهم[١]"

وقد جاء المسند إليه معرفًا بالإضافة إلى الضمير في قوله: (همتي) ؛ للدلالة على خصوصية هذه الهمة بالمتنبي ، فهي همة لا يملكها أحد غيره ، وإنما هي ملك له ، وخاصة به ، ومعروفة ومشهورة بنسبتها إليه .

وزيادة في إبراز هذه الهمة العالية استخدم المتنبي في الشطر الأول لفظ العموم في قوله : (كل مطلب) ليدل على أنه لا يعوقه أي مطلب مهما كانت وعورته وصعوبته ؛ لأنه يملك همة تتغلب على كل الصعاب ، وتحطم أمامها كل القيود . واستخدم الوصف في الشطر الثاني في قوله : (المدى المتطاول) ليبرز بذلك الوصف هذه الهمة العالية التي لا تعجزها المسافات مهما طالت .

ومن الدراسة السابقة لحديث المتنبي عن علو همته وطموحه يتضح الآتي :

- أسلوب التضاد والمقابلة من أبرز الأساليب التي استخدمها المتنبي في حديثه عن علو همته وطموحه ، وذلك لما لهما من أثر في إبراز قوة الهمة والطموح ، فالتضاد جعل البعيد قريبًا ، والصعب سهلاً في قوله : (وإذا حاولت أمرًا أريده تدانت أقاصيه وهان أشده) ، وأسلوب المقابلة قد أبرز همة المتنبي في كامل قوتها وحيويتها في قوله : (وأبلغ أقصى العمر وهي كعاب) ، وكذلك كان للتضاد دور فعال في إبراز قوة الطموح في قوله :
  ويجهل أني مالك الأرض معسر وأني على ظهر السماكين راجل .
- غالبًا ما يستخدم المتنبي المقارنة بين الجسم والنفس عند الحديث عن همته وطموحه فدائمًا يرسم للنفس صورة قوية مع ضعف الجسم وشيبه ، فهي همة لا تضعف بضعف الجسم ، وإنما تظل في حيويتها وشبابها .
- مما يؤخذ على المتنبي في حديثه عن همته وطموحه عدم الرضا بالقليل ، ولا بالكثير ، فهو ساخط على القليل ، وغير مقتنع بالكثير يدل على ذلك قوله : (وأني مالك الأرض معسر) وقوله (ويجهل أني على ظهر السماكين راجل) ، وهذا يعكس شيئا في شخصية المتنبي هو أنها شخصية لا يرضي غرورها شيء ولا يقنع طموحها حد .

---

(١) من أسرار التعبير القرآني (دراسة تحليلية لسورة الأحزاب) د / محمد محمد أبو موسى ص ١٠١ ، ط ٢ ، مكتبة وهبة ١٤١٦ هـ - ١٩٩٧م .

سادسًا : بلاغة المتنبي في وصفه لصبره وجلده : ـ

الصبر: هو ترك الشكوى من ألم البلوى لغير الله لا إلى الله ؛ لأن الله تعالى أثنى على أيوب ـ عليه السلام ـ بالصبر في قوله : { إنا وجدناه صابرًا[١] } مع دعائه في دفع الضر عنه بقوله : { وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين[٢] } ، فعلمنا أن العبد إذا دعا الله تعالى في كشف الضر عنه لا يقدح في صبره[٣].

وقد تحدث المتنبي عن قوة صبره وجلده أمام أحداث الزمان ، ونوائبه ، وبيَّن أنه لا ينكسر أمام هذه الأحداث ، بل إنه يظل ثابتًا صابرًا قويًا ، مهما كانت قوة المصائب وكثرتها فمن حديثه عن صبره وجلده قوله[٤] :

أُطاعِنُ خَيْلاً مِنْ فَوارِسِها الدّهْرُ وَحيدًا وما قَوْلي كذا ومَعي الصّبرُ
وأشْجَعُ مني كلّ يوْمٍ سَلامَتي وما ثَبَتَتْ إلاّ وفي نَفْسِها أمْرُ
تَمَرّسْتُ بالآفاتِ حتى تركْتُهَا تَقولُ أماتَ المَوْتُ أم ذُعِرَ الذُّعْرُ[٥]

فهذه الأبيات جاءت في مطلع قصيده يمدح بها المتنبي علي بن أحمد بن عامر الأنطاكي .

والمتنبي في هذه الأبيات يتحدث عن صبره ، وصموده أمام حوادث الزمان ، فهو يواجه أحداث الدهر بصبره وجلده ، ويخرج من هذه المواجه الشرسة سليمًا غير متأثر بها .

وأول ما يطالعك في هذه الأبيات الفعل المضارع (أطاعن) الذي يدل على استمرار المواجهة بين المتنبي ، وأحداث الزمان ، فالمتنبي لا يستسلم لهذه الأحداث ، وإنما يستمر في مواجهتها بصبره وجلده ، والزمن ـ كذلك ـ لا يكف عن مواجهة المتنبي بأحداثه ، ومصائبه ، وابتلاءاته .

ويأتي المفعول به (خيلاً) نكرة ، ليدل على كثرة الخيول التي يواجهها المتنبي ، ويدل ـ أيضًا ـ على عظمة هذه الخيول وقوتها ، فهي خيول كثيرة وعظيمة في قوتها ، وفي هذا إظهار لقوة الصبر والتحمل عند المتنبي . وألمح ـ أيضًا ـ في تنكير لفظ (خيلاً) إشارة إلى كثرة المصائب والابتلاءات التي واجهها المتنبي ، وفي هذا إظهار لقوة الصبر والتحمل .

ولم يكتف المتنبي بدلالة قوة التنكير على إظهار قوة المواجهة ، بل إنه جعل الدهر فارسًا من فوارس هذه الخيول الكثيرة ، وذلك في قوله : (خيلاً من فوارسها الدهر) ، فإذا كان الدهر بكل أحداثه ، ومصائبه فارسًا من فوارس هذه الخيول التي يواجهها المتنبي ، فإن هذه المواجهة تجمع بين قوة الخيل وكثرتها ، مع قوة الفوارس وكثرتهم ، وكل هذا يصور قوة الصبر والجلد عند المتنبي .

وفي صورة الخيل التي من فوارسها الدهر تجسيد لحوادث الزمان ، وإظهار لها في صورة حسية تعكس قوتها وكثرتها ، وقوة صبر وجلد من يواجهها ، وفي هذا من قوة التأثير ، وجمال التعبير ما لا يخفى على ذي ذوق . وتأتي الحال المفردة في قوله : (وحيدًا) لتصنع مقابلة معنوية بين القلة ، والكثرة ، ففي مقابل الخيول الكثيرة التي دل عليها التنكير في لفظ (خيلاً) وفي مقابل الكثرة في عدد الفوارس التي دل عليها التبعيض في قوله : (من فوارسها الدهر) تأتي المواجهة الفردية التي دلت عليها الحال في قوله : (وحيدًا) وهذه المقابلة المعنوية تشارك النَظم في إبراز قوة الصبر والجلد ، أمام كثرة الحوادث وعظمها .

وبعد أن أظهر المتنبي وحدته ، وانفراده في المواجهة استدرك ذلك بقوله : (وما قولي كذا ومعي الصبر) ، واستخدم أسلوب التقديم ، فقدم الجار والمجرور (معي) على (الصبر) ؛ ليؤكد قوة المعية بينه وبين الصبر ، وليبين أنه في كل مواجهاته مع حوادث الدهر لا يفارقه الصبر ، فهو يلازمه

---

(١) من الآية { ٤٤ } سورة ص .
(٢) الآية { ٨٣ } الأنبياء
(٣) التعريفات ص ١٣٦ ، ١٣٧
(٤) الديوان ١٨٩
(٥) الذعر: الفزع (ينظر مقاييس اللغة ٢ / ٣٥٥)

ملازمة الصديق لصديقه ، فهو ـ إذًا ـ ليس وحده ، ولهذا جاء النفي في قوله : (وما قولي كذا ومعي الصبر) ، أي " لم أقل إني وحيد والصبر معي ، من كان معه الصبر فلا وحدة له[١] " .

وفي البيت يعقد المتنبي مفاضلة بينه وبين سلامته ، يظهر فيها تفوق سلامته في الشجاعة عليه ، وذلك في قوله : (وأشجع مني كل يوم سلامتي) ، وهذه المفاضلة لا تخرج عن إثبات الصبر والشجاعة للمتنبي ؛ لأن خروجه سليمًا بعد مواجهة حوادث الدهر دليل على ثباته وصبره أمامها ، وعدم تأثره بها ، ولهذا قال في الشطر الثاني : (وما ثبتت إلا وفي نفسها أمر) أي " فثبوت سلامتي معي في هذه المصارعة لأمر عظيم[٢] " .

وفي قوله في البيت الثالث (تمرست بالآفات) إيحاء بكثرة المصائب التي تعرض لها المتنبي ، مع قوة صبره وجلده عليها ، وهذا الإيحاء جاء من الفعل الماضي (تمرست) الدال على طول مدة الابتلاء ، ومن الجمع في كلمة (الآفات) الدال على الكثرة .

ويجسد المتنبي (الآفات) ، ويثبت لها القول عن طريق الاستعارة المكنية في قوله : (تركتها تقول) ، ثم يجري على لسانها هذا القول المتضمن لأسلوب الاستفهام : (أمات الموت أم ذعر الذعر). وفي هذا التجسيد للآفات ، وجريان هذا الاستفهام على لسانها إظهار لقوة صبر المتنبي وصموده أمام مصائب الزمان ، فهو يقول لقد وصل بي الصبر إلى حد " أن الآفات لو قدرت على النطق لقالت : أمات الموت أم خاف الخوف ، حتى لا يخاف هذا أو لا يموت ؟ لكثرة ما ترى من صبري وإقدامي على المخاوف والمهالك ، من غير خوف ولا هلاك يصيبني[٣] " .

وأرى أن الاستفهام الذي أجراه المتنبي على لسان الآفات يظهر ضعف العقيدة عند المتنبي ؛ لأن المتنبي لو كان عنده يقين تام بأن الموت بيد الله ، وأن لكل أجل كتاب ما جرى هذا الاستفهام في قوله : (أمات الموت) ، لأن نجاته من الموت وسلامته منه ليس لأمر يرجع إلى قوته ، وإنما هو شيء مقدر من المولى عز وجل قال تعالى : { قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا[٤] } ، وقال تعالى : { فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون[٥] } .

ومن حديث المتنبي عن صبره قوله[٦] :

رمَاني الدّهرُ بالأرزاءِ[٧] حتى ... فُؤادي فـــي غِشاءٍ مِـــنْ نِبالِ
فَصِرْتُ إذا أصابَتْنِي سِـــهامٌ ... تكَسّرَتِ النّصالُ على النّصالِ[٨]
وهـــانَ فَـما أبالـي بالرّزايا ... لأنّـــي ما انْتَفَعتُ بأنْ أبالـــي

فهذه الأبيات جاءت في قصيدة يرثي بها المتنبي والدة سيف الدولة وقد بدأها بقوله :

نُعِدُ المَشرَفيّةَ والعَوالي ... وتَقْتُلُنا المَنُونُ بِلا قِتالِ

وقد جاء الحديث هنا عن الصبر أمام نكبات الزمان مناسبًا للغرض الذي قيلت فيه القصيدة ، لأن المجال مجال صبر ، والمتنبي في هذه الأبيات يتحدث عن كثرة الابتلاءات والأحداث التي يرميه بها الزمن فهو يقول : إن الدهر رماني بسهام مصيبة حتى عمَّت فؤادي ، فليس في قلبي موضع إلا وفيه

---

(١) التبيان في شرح الديوان ٢ / ١٤٥
(٢) المصدر نفسه ٢ / ١٤٦
(٣) المصدر نفسه ٢ / ١٤٦
(٤) من الآية { ٥١ } سورة التوبة
(٥) من الآية : { ٣٤ } سورة الأعراف
(٦) الديوان ٢٦٥
(٧) الأرزاء : جمع مفرده : المرزئة ، والرزيئه ، وهي المصيبة (ينظر اللسان ١ / ٨٦)
(٨) النصال : حديدة السهم ، والرمح ، والسيف ما لم يكن له مقبض (ينظر القاموس المحيط ١ / ١٣٧٣)

سهم من سهام الدهر ، وقد خف عليّ الدهر بحوادثه ومصائبه ، فلا أبالي ولا أجزع عند نزول المصائب .

والمتنبي في قوله : (رماني الدهر) يظهر الدهر في صورة الفارس الذي يحاربه ، إلا أن هذا الفارس لا يرميه بالسهام ، وإنما يرميه بالمصائب ، ففي التعبير بفعل الرمي ، وإسناده إلى الدهر إظهار لقوة المصائب التي يواجهها المتنبي ، وهو إسناد مجازي ؛ لأن الدهر ليس هو الفاعل الحقيقي للرمي بالمصائب ، وإنما هو زمن لوقوع الأحداث والمصائب ، وعلى هذا ففي الكلام مجاز عقلي علاقته الزمنية ، ويمكن أن يوجه الكلام على أنه من قبيل الاستعارة المكنية ، وذلك بتشبيه الدهر بالفارس ، ثم حذف المشبه به ، وإثبات لازم من لوازمه للدهر وهو الرمي . والغرض من المجاز العقلي أو الاستعارة المكنية في النهاية واحد ، وهو إظهار شدة المصائب ، وقوة الابتلاء .

ويأتي الجمع في قوله : (بالأرزاء) ؛ للدلالة على كثرة المصائب التي يواجهها المتنبي ، وهي كثرة متتالية ، ومتواصلة ، وهذا ما دل عليه التعبير بـ (حتى) الدالة على وصول المصائب إلى غايتها في قوله : (حتى فؤادي في غشاء من نبال) . ولما كان الفؤاد موضع الهم والغم اختاره المتنبي ، ورسم له صورة خيالية في قوله : (فؤادي في غشاء من نبال) ، وهي صورة حسية يبرز المتنبي من خلالها كثرة المصائب التي وقعت عليه ، فقد جعل القلب من كثرة المصائب كأنه مغطى بالسهام .

وإبراز المتنبي لقوة المصائب وشدتها ، يعكس قوة الصبر والجلد والتحمل التي يتمتع بها المتنبي ، وهذا ما أشار إليه المتنبي في قوله :

فصرت إذا أصابتني سهام تكسرت النصال على النصال

ففي هذا البيت استعارة تمثيلية ، حيث شبه المتنبي صبره وجلده أمام الابتلاءات والمصائب التي توالت عليه بالسهام التي تقع على السهام ، فتتكسر دون أن تترك أثرًا في القلب ؛ لأن القلب قد امتلأ بالسهام ، فهذه السهام الجديدة ، تقع على السهام القديمة فتتكسر دون أن تؤثر على القلب ؛ لأنها ليس لها مكان في القلب تسكن فيه ، وفي هذا دلالة على التعود والتمرس على المصائب لكثرتها ، وإلى هذا يشير البرقوقي فيقول : " تمثيل معناه أن الأرزاء توالت علي حتى هانت عندي ، والشيء إذا كثر اعتاده الإنسان[1] . وفي تنكير المسند إليه (سهام) في قوله : (أصابتني سهام) دلالة على كثرة هذه السهام التي أصابته ، وهذه الكثرة في السهام التي دل عليها التنكير تعكس كثرة المصائب وتواليها على المتنبي ، وهذا مما يحتاج إلى مزيد من الصبر والجلد .

والمتنبي عندما شبه المصائب في البيت الأول بالنبال عن طريق الاستعارة ، تناسى هذا التشبيه ، وأخذ يتحدث بعد ذلك على المصائب ، وكأنها سهام حقيقية ، فقال : (أصابتني سهام) ولم يقل : أصابتني الأرزاء ، كما قال في البيت الأول : (رماني الدهر بالأرزاء) ، ثم زاد في تناسي التشبيه فقال : (تكسرت النصال على النصال) ، وفي هذا التناسي للمصائب ، وإظهارها في هذه الصورة الحسية ، إظهار لقوة هذه المصائب ، وشدة إصابتها ، فهي قوة لا يثبت أمامها إلا صاحب صبر وجلد ، ولو لم يكن المتنبي كذلك لقضت عليه هذه السهام القاتلة التي لا تخطئ هدفها .

والملاحظ أن المتنبي قد نوع في ألفاظ السهام ، فتارة يقول : (نبال) ، وتارة يقول : (سهام) وتارة يقول : (النصال) ولعل هذا التنوع يشير إلى تنوع المصائب ، فتارة تأتي المصيبة في المال ، وتارة تأتي في الولد والأهل ، وتارة تأتي في النفس ، وكأن المتنبي بذلك يقول : إن الدهر لم يترك مصيبة من المصائب إلا وقد أصابني بها ، هذا والله أعلم .

وبعد أن عبر المتنبي عن صبره ، وجلده ، وعدم تأثره بالمصائب لكثرتها عن طريق التمثيل ، صرح بذلك في البيت الأخير ، فقال :

وهان فما أبالي بالرزايا لأني ما انتفعت بأن أبالي

---

(١) شرح ديوان المتنبي للبرقوقي ، الجزء الثالث ، ص ١٤١

والملاحظ هنا أن المتنبي رجع يتحدث عن المصائب في هذا البيت بلفظها ، فقال : (الرزايا) ، ولم يقل السهام ، أو النبال ، أو النصال كما أطلق عليها من قبل ، ولعل السر في ذلك هو أن المتنبي في هذا البيت الأخير أطلق حكمة من حكمه العظيمة الشائعة في ديوانه ، وهو أن الإنسان أمام المصائب لا ينفعه الجزع ، ولا يفيده إلا الصبر ، والحكمة يتناسب معها استخدام الألفاظ والأساليب في حقيقتها ، ومدلولها اللغوي ، ومن هنا كان المتنبي دقيقًا في ألفاظه وعباراته ، ومعانيه .

ومن حديث المتنبي عن صبره قوله[١] :

أَلَحّ عَلَىّ السّقْمُ حتى أَلِفْتُهُ وَمَلّ طَبيبي جانِبي وَالعَوائِدُ[٢]

فالمتنبي هنا يتحدث عن صبره وجلده أمام المرض ، وقد جاء ذلك في قصيده يمدح بها سيف الدولة ، وقد بدأها بقوله :

عَوَاذِلُ ذاتِ الخَال فيَّ حَوَاسِدُ وَإنّ ضَجيعَ الخَوْدِ منّي لمَاجِدُ

وأول ما يقابلك من الأساليب البلاغية في البيت هذه الاستعارة المكنية في قوله : (ألح على السقم) وهي استعارة تجسد المرض في صورة إنسان لحوح ، يكثر الطلب ، ويثقل على المتنبي من كثرة إلحاحه ، وتكشف عن شدة المعاناة من طول المرض.

وتأتي حتى الدالة على الغاية في قوله : (حتى ألفته) ؛ لتضفي على السياق مزيدًا من المعاناة ، فهي تشعر بطول المعاناة والملازمة للمرض ، وطول المدة الزمنية التي عاشها المرض مع المتنبي ، وعاشها المتنبي مع المرض ، ومع طول مدة المرض وقسوته تجد الصبر والجلد في قوله : (ألفته) . وتظهر بلاغة المتنبي في قوله : (ألفته)، فهذه اللفظة مع أنها غريبة الاستعمال مع المرض ، إلا أن المتنبي استطاع أن يحملها المعنى الذي قصده ، فالإنسان لا يألف إلا من يحبه ، ولا يؤذيه ، ولكن أن يألف الإنسان المرض ، فهذا أمر غريب أراد المتنبي أن يدل به على ملازمة المرض ، وعدم مفارقته له ، حتى أصبح بمثابة الشيء المألوف الذي لا يخشى أذاه.

وتأتي المقابلة بين قوله : (ألفته) وقوله : (ومل طبيبي جانبي) وهي مقابلة تظهر قوة الصبر والجلد أمام طول المرض ، وشدة المعاناة ، فالمتنبي الذي يعاني من المرض ، وقسوته صابر ، لدرجة حصول الألفة بينه وبين المرض ، وفي المقابل فإن الطبيب الذي يعالج المتنبي لم يستطع التحمل ، وملَّ من كثرة معاودة المتنبي .

وزيادة في إظهار قوة الصبر والتحمل عند المتنبي عطف قوله : (والعوائد) على قوله : (طبيبي) ، وجاء العطف بالواو ؛ للدلالة على مشاركة العوائد ، وهن النساء الزائرات للمتنبي في مرضه - للطبيب في الملل - " وخص النساء ؛ لأنهن أعطف قلوبًا ، وأدوم على العيادة ، فإذا ملّت النساء من العيادة ، فالرجال أكثر مللاً[٣]" .

ومما جاء من حديثه عن صبره وجلده قوله[٤] :

إنّ نُيُوبَ الزّمَانِ تَعْرِفُني أنَا الذي طالَ عَجْمُها[٥] عُودي

فهذه النبرة الحزينة التي تشع من ألفاظ البيت تبرز آلام المتنبي ، أمام قسوة الزمان ، ومرارة الأيام ، وقد جاء هذا البيت في قصيدة يمدح بها سيف الدولة ، ويرثي ابن عمه تغلب أبا وائل ، وقد بدأها بقوله :

مَا سَدِكَتْ علة بِمَوْرُودِ أكْرَمَ مِنْ تَغْلِبَ بن داوُدِ

---

(١) الديوان ٣١٨

(٢) العوائد : هن اللاتي يعدن المريض ، الواحدة عائدة (لسان العرب ٣ / ٣١٩) .

(٣) معجز أحمد ٢٣٠

(٤) الديوان ٢٩٤

(٥) عجمها : عجم العود : هو العض عليها بالأسنان لاختبار صلابتها (العين ١ / ٢٣٨) .

وقد بدأ المتنبي حديثه عن قسوة الزمان بهذا الأسلوب الخبري المؤكد في قوله : (إن نيوب الزمان تعرفني) ، والتوكيد هنا ليس لرد شك أو إنكار ، لأنه لا أحد ينكر على المتنبي ما يقوله ، أو حتى يشك فيه ، وفي مثل هذا التوكيد يقول صاحب المطول " وهاهنا بحث لا بد من التنبيه عليه ، وهو أنه لا ينحصر فائدة (أن) في تأكيد الحكم نفيًا لشك ، أو ردًا لإنكار ، ولا يجب في كل كلام مؤكد أن يكون الغرض منه رد إنكار محقق أو مقدر" [١] .

ويزيد صاحب الأطول الكلام وضوحًا فيقول : " وأراد بنفي وجود كونه لنفي إنكار محقق ، أو مقدر ما يشمل رد الإنكار والتردد " [٢] ، وعلى هذا فالتأكيد (بإن) في قوله : (إن نيوب الزمان تعرفني) ليس الغرض منه رد إنكار ،أو إزالة تردد ، وإنما الغرض منه الاهتمام بمضمون الكلام ، والتعبير عن شدة الأسى والألم .

وقد رسم المتنبي صورة قاسية للزمان في قوله : (نيوب الزمان تعرفني) فقد شخص الدهر وجعل له أنيابًا ، وهو بذلك يشبهه بحيوان مفترس ، وفي هذا تصوير لشدة المعاناة التي يعانيها المتنبي ، مع شدة القسوة ، وكثرة الإيذاء من قبل الزمان ، وهذا التشخيص للزمان صنعته الاستعارة المكنية التي أثبتت لازم المشبه به ، وهو الحيوان المفترس للزمان .

وقد استخدم المتنبي جمع الكثرة للفظ ناب فقال : (نيوب الزمان) ولم يقل : أنياب الزمان ، وفي هذا إشارة إلى كثرة المصائب ، والابتلاءات التي يلاقيها المتنبي ، ويعيشها ، هذا بالإضافة إلى ما يوحي به الجمع من شدة الألم ، وقوة الأذى ؛ لأن الألم من النيوب الكثيرة أشد ضررًا ، وأقوى أذىً من الذي يقع من الأنياب القليلة . وقد جاء الشطر الثاني في قوله : (أنا الذي طال .. إلخ) مفصولاً عن الشطر الأول ؛ لما بين الشطرين من شبه كمال الاتصال ، فالشطر الثاني منزل من الأول منزلة الجواب من السؤال ،وقوة الصلة بين الجواب والسؤال أغنت عن الوصل بحروف العطف .

ويأتي أسلوب القصر ، وطريقه التعريف في قوله : (أنا الذي طال عجمها عودي) ؛ ليدل على خصوصية المتنبي بما جاء في حيز الصلة ، فهو وحده الذي يستطيع أن يتحمل هذه المصائب ، والابتلاءات الكثيرة ، وذلك لما يملكه من قوة الصبر والجلد الذي لا يملكه من وجهة نظره أحد غيره .

والقصر هنا من قبيل قصر الصفة على الموصوف قصرًا حقيقيًا ادعائيًا ؛ لأن هذا القصر غير مطابق للواقع ،وإنما جاء على سبيل الادعاء والمبالغة . وتأتي الاستعارة التمثيلية في قوله : (طال عجمها عودي) لتبرز الصبر ، وقوة التحمل في صورة حسية ، فقد شبه المتنبي حاله مع الزمان في كثرة المصائب والابتلاءات مع صبره ، وتحمله لها مع تواليها ، بمن يختبر عودًا ليعرف أصلبًا هو أم رخوًا ، فهي استعارة تكشف عن تكرار المصائب ، وتواليها ، وطول المعاناة معها ، مع الصبر والتحمل وعدم الانكسار أو الاستسلام . وهكذا فإن المتنبي في حديثه عن صبره يكثر من استخدام الصور الحسية التي تبرز قوة صبره وجلده أمام قوة المصائب وشدتها ، وقد كان أسلوب الاستعارة من أبرز الأساليب البلاغية في أداء هذا الغرض .

وبعد هذه الدراسة لحديث المتنبي عن صبره نرصد الآتي :

- التجسيد والتشخيص للدهر وإبرازه في صورة الفارس المقاتل ظاهرة في حديث المتنبي عن صبره ، فقد جعل الدهر فارسا في قوله : (أطاعن خيلاً من فوارسها الدهر) وجعل الدهر راميًا في قوله : (رماني الدهر بالأرزاء) وظهر الدهر في صورة السبع في قوله : (إن نيوب الزمان تعرفني) .
- الاستعارة هي أكثر الأساليب التي استخدما المتنبي في الحديث عن صبره ، فقد أظهرت الاستعارة الدهر في صورة المقاتل،وأظهرت المصائب في صورة السهام ، والنبال،والنصال،

---

(١) المطول في شرح تلخيص المفتاح لسعد الدين التفتازاني الهروي ص ٥٣ المكتبة الأزهرية للتراث ١٣٣٠ هـ

(٢) الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم للعلامة إبراهيم بن محمد بن عريشاه عصام الدين الحنفي ، ت ـ عبد الحميد هنداوي ١ / ٢٥٤ ، منشورات علي بيضون ، دار الكتب العلمية ١٤٢٢ هـ ـ ٢٠٠١م

وأثبتت للآفات قولاً في قوله : (تركتها تقول أمات الموت أم ذعر الذعر) ، وهذه الاستعارات قد أبرزت الصبر في أقوى عرض وأبلغ تصوير .

- هناك معنى يتكئ عليه المتنبي ، ويكرره في حديثه عن صبره ، مع اختلاف العرض والأسلوب ، وهو عدم تأثر المتنبي بالمصائب لكثرة تكرارها ، فهذا المعنى يتكرر في ثوب مختلف من الألفاظ والعبارات ، وهذا يدل على ثراء المخزون اللغوي عند المتنبي ، فقد تكرر هذا المعنى في قوله : (وهان فما أبالي بالرزايا) وقوله : (فصرت إذا أصابتني سهام...تكسرت النصال على النصال) وقوله : (ألح عليّ السقم حتى ألفته) وقوله : (إن نيوب الزمان تعرفني .... أنا الذي طال عجمها عودي) ، فالمعنى في كل ذلك مشترك ، ولكن العرض والأسلوب مختلف ، وهذا يدل على موهبة شعرية عالية متمكنة من لغتها .

سابعًا : بلاغة المتنبي في وصفه لخبرته وتجاربه :-

الخبرة : هي المعرفة ببواطن الأمور[١]. والمتنبي كثير التجارب مع أحداث الزمان ، كما أنه كان كثير السفر والترحال ، والتنقل من بلد إلى بلد ، وقد ساعده ذلك على تكوين خبرة عالية في تعاملاته مع الآخرين ، وقد تحدث عن خبرته وتجاربه في أكثر من موضع في ديوانه ، من ذلك قوله[٢] :

وَقَد ذُقتُ حَلْوَاء البنينَ على الصِّبا فلا تَحْسِبَنِّي قلتُ ما قلتُ عن جَهْلِ
وَمـا تسَـعُ الأزْمـانُ عِلمي بأمْرِ ها ولا تُحْـسِنُ الأيامُ تكْتُبُ مـا أمْلِـي
وَمـا الدّهـرُ أهـلٌ أنْ تُؤَمَّلَ عِندهُ حيـاةٌ وأن يُشْتاقَ فيهِ إلى النَّسْـلِ

فهذه الأبيات جاءت في قصيدة يرثي بها المتنبي أبا الهيجاء عبد الله بن سيف الدولة وقد بدأها بقوله :

بِنا منكَ فوْقَ الرَّملِ ما بكَ في الرَّمل وَهذا الذي يُضنِي كَذاكَ الذي يُبْلِي

وجاءت هذه الأبيات في نهاية المواعظ والنصائح التي قدمها المتنبي لسيف الدولة في رثاء ابنه ، وهذه الأبيات جاءت لتؤكد أن المتنبي لم يقدم نصائحه ومواعظه إلا عن خبرة وتجربة . فهذه الجملة (قد ذقت حلواء البنين) التي جاءت في مطلع الأبيات تحمل معها تجربة مريرة عاشها المتنبي ، وهي حلاوة التمتع بالبنين التي فاجأه الزمن بالحرمان منها . فهذه الجملة مع ما تنطق به ألفاظها من معاني المتعة والحلاوة ، إلا أنها تحمل في داخلها مرارة التجربة وقسوتها .

وقد كان المتنبي رائعًا في توظيفه واستخدامه هذا اللفظ (حلواء) في قصيدة من قصائد الرثاء ، وكأن المتنبي أراد أن يكشف بهذا اللفظ عمَّا يقابله من مرارة وشدة وعناء وتعب وحزن وغير ذلك من الألفاظ التي تطرأ على الذهن عند استدعاء مقابلات هذا اللفظ . وقد حوت هذه الجملة (وقد ذقت حلواء البنين) استعارة لطيفة كشفت عن اللحظات القصيرة الجميلة التي عاشها المتنبي في كنف الأولاد وأحضانهم ، فقد شبه المتنبي إحساسه بالعيش مع الأولاد بمن يتذوق شيئًا له حلاوة في اللسان ، وهذه الاستعارة جاءت لا لتكشف هذه الحلاوة فحسب، ولكن جاءت لتعكس شدة المرارة والأسى التي خلفها فقدان الولد . إنها براعة عالية ،وبلاغة راقية أن يسخر المتنبي هذه الاستعارة للكشف عمّا يضادها من شدة الحسرة والألم . وفي قوله : (ذقت) ترشيح للاستعارة ؛ لأن الإذاقة من ملائمات المستعار ، وهو لفظ (حلواء) وفي هذا تقوية للاستعارة ، ومبالغة فيها ؛ " لأن الترشيح يضفي على المجازية قوة ، وذلك ؛ لأنه يعطي المستعار له صورة المستعار منه ، ويتناسى معه التشبيه ، حتى وكأن الموجود ، والمتحدث عنه هو المشبه به لا المشبه ، فالترشيح يعني التهيئة والإعداد ، فهو من قولهم : رشحت الصبي ، إذا ربيته باللين قليلاً ، ومنه المرشح للوزارة : أي المربى لها حتى يقوى عليها[٣] " .

ويأتي النهي في قوله : (فلا تحسبني قلت ما قلت عن جهل) وهو موجه إلى سيف الدولة ؛ ليؤكد به المتنبي صدق تجربته وخبرته بالمواعظ والنصائح التي يقدمها لسيف الدولة ، فكل كلمة خرجت من لسان المتنبي خرجت عن تجربة صادقة ، ومن نفس عانت أشد المعاناة ، وشربت من نفس الكأس الذي شرب منه سيف الدولة . وقد جاءت جملة النهي هنا مفصولة عن جملة (وقد ذقت حلواء البنين) لما بين الجملتين من كمال الانقطاع ؛ لاختلاف الجملتين في الخبرية والإنشاء لفظًا ومعنى .

ويستخدم المتنبي أسلوب المبالغة في إثبات خبرته وتجربته ، وذلك في قوله : (وما تسع الأيام علمي بأمرها) ، فقد أثبت المتنبي للأيام عن طريق الاستعارة المكنية الاتساع والضيق ، ثم نفي قدرة الأيام على أن تسع علمه وخبرته بها ، وأثبت لها عن طريق النفي الضيق بعلمه وخبرته ، وفي هذا مبالغة في إثبات خبرة المتنبي بالأيام ، وتجاربه فيها . ويبدو أن المتنبي لا يستطيع أن يتخلى عن ذاته حتى في قصائد الرثاء التي هي بعيدة كل البعد عن الحديث عن النفس ، ولكنها طباع المتنبي التي ترفع شعار الذات فوق كل مناسبة حتى في رثاء الموتى .

---

(١) التعريفات ص ١٠٢
(٢) التبيان في شرح الديوان ٣ / ٥٥ ، ٥٦
(٣) ينظر شروح التلخيص ٤ / ١٣٠ / ط دار السرور ، بيروت ، لبنان (بدون تاريخ)

وكما وصف المتنبي الأيام بالضيق وعدم السعة لعلمه وخبرته وتجاربه أثبت لها العجز عن الكتابة في قوله : (ولا تحسن الأيام تكتب ما أملي) ، وقد جاءت هذه الجملة معطوفة بالواو على جملة (وما تسع الأيام علمي بأمرها) وهذا العطف مع تكرار النفي يدل على عجز الأيام عن الأمرين : سعة علم المتنبي بأمرها ، وقدرتها على كتابة ما يمليه عليها ، والوصل بين الجملتين هنا للتوسط بين الكمالين ؛ لاتفاقهما في الخبرية لفظًا ومعنى . وفي نفي الكتابة عن الأيام وإثبات عجزها عن ذلك تأكيد لخبرة المتنبي العالية ، وتجاربه الكثيرة . وفي نفي قدرة الأيام على الكتابة استعارة مكنية ، فقد أثبت المتنبي في نفسه الكتابة للأيام ، وجعل الأيام لها قدرة على الكتابة ، ثم نفى عن الأيام القدرة على كتابة ما يمليه عليها من الحكم والمواعظ النابعة من كثرة التجارب ، ومن طول الخبرة والتمرس . والمتنبي بهذه الاستعارة التي ينفي فيها عن الأيام القدرة على كتابة ما يمليه عليها " يزيد توكيد ما قدمه من حنكته وطبه بالأمور ، وما حضّ عليه من عدم الاكتراث للولد وفقده[١]" . وكلها مبالغات واستعارات متتابعة هدفها تأكيد خبرة المتنبي بالأيام والأزمان .

ويختم المتنبي الحديث عن خبرته وتجربته ببيت يصب فيه خلاصة هذه الخبرة والتجربة ، ويقدم لسيف الدولة موعظة صادقة تدل على صدق التجربة والخبرة . فقد أتى المتنبي بأسلوب النفي في قوله : (وما الدهر أهل أن تؤمل عنده حياة)ليحذر من اغترار الإنسان وتشبثه بالحياة . وقد كان المتنبي مراعيًا للمقام وملتزمًا بأدب الخطاب مع سيف الدولة على خلاف عادته ، فلم يخاطبه مخاطبة مباشرة في موعظته ، فلم يقل : وما الدهر أهل أن تؤمِل عنده حياة ، وأن تشتاق فيه ، بل التزم البناء للمجهول في حديثه ، فحذف الفاعل من الفعل (تؤمل) ، و(يشتاق) لتخرج النصيحة عامة فيها من الأدب ما يليق بمخاطبة الملك المفجوع بفقد ابنه .

<u>ومما جاء من حديث المتنبي عن خبرته وتجاربه قوله[٢] :</u>

إذا ما النّاسُ جَـرّ بَـهُـمْ لَـبِيبٌ فإنّي قَدْ أكَلْتُـهُــمُ وَذاقَـا
فَـلَـــمْ أرَ وُدّهُـمْ إلاّ خِـداعًا ولَـم أرَ دينَـهُـمْ إلاّ نِـفَـاقَـا

ففي هذين البيتين يتحدث المتنبي عن خبرته وتجاربه مع الناس ، وقد جاء البيتان في قصيدة يمدح فيها المتنبي سيف الدولة ، وقد بدأها بقوله :

أيَـدْري الرَّبْـعُ أيّ دَمٍ أراقَـا وَأيّ قُلُوبِ هذا الرّكْبِ شَـاقَـا

وقد شبه المتنبي الناس عن طريق الاستعارة بالطعام ، وجعل نفسه هو الآكل لهذا الطعام ، وذلك في قوله : (فإني قد أكلتهم وذاقا) وهذه الاستعارة تكشف عن خبرة المتنبي العالية بالناس ، ودرايته الكاملة بكل دقائقهم وعيوبهم ، وإحاطته بكل أحوالهم ، لأن الآكل - دائمًا - خبير بما يأكله ، مدرك لعيوبه ومحاسنه .

وزيادة في إظهار هذه الخبرة العالية بأحوال الناس عقد المتنبي مقارنة بين خبرته بالناس ،وبين خبرة اللبيب المجرب لأحوالهم ، ثم انتهى من هذه المقارنة بالحكم بتفوقه ، وتفوق خبرته ، فقد نسب لنفسه الأكل في قوله : (أكلتهم) وجعل اللبيب مجرد ذائق فقال : (وذاقا) ، وفرق بين الآكل والذائق ؛ فإن " الذائق ليس في المعرفة كالآكل ،لأن الآكل أتم معرفة من الذائق[٣]" . وقد جاء المسند إليه(لبيب) في قوله (جربهم لبيب) نكرة ؛ للدلالة على عظم هذا اللبيب المجرب لأحوال الناس ، وعظم خبرته .

وهذه الخبرة العظيمة التي دل عليها التنكير هنا تعكس شدة خبرة المتنبي ؛ لأن خبرة المتنبي تفوق خبرة هذا اللبيب مع عظمها ، فمهما كانت خبرة هذا اللبيب ومعرفته بأحوال الناس ، فإن خبرة المتنبي تفوق خبرته . وتأكيدًا لتلك الخبرة استعمل المتنبي (إن) و(قد) الداخلة على الفعل الماضي في قوله : (فإني قد أكلتهم) ، وكأن المتنبي رأى أن كلامه هذا عرضة للشك أو الإنكار ، فأخرجه مؤكدًا بأكثر

---

(١) شرح البرقوقي ٣ / ١٧٩
(٢) الديوان ٢٩٢
(٣) التبيان في شرح الديوان ٢ / ٣٠٩

من مؤكد . وبعد أن أكد المتنبي خبرته ودرايته الكاملة بالناس وأحوالهم ، في البيت الأول جاء البيت الثاني ؛ ليصدر به الحكم على الناس من خلال تلك الخبرة والتجربة ، وذلك في قوله :

فلم أر ودهم إلا خداعا ولم أر دينهم إلا نفاقا

وقد استخدم المتنبي أسلوب القصر في الشطرين ؛ ليفيد بذلك أن ود الناس في نظره لا يخرج عن الخداع والكذب والادعاء ، وأن دينهم لا يتعدى النفاق ، فهي قلوب خربة تتزيًّا بزي الصالحين .
والقصر هنا من قبيل قصر الموصوف على الصفة قصرًا حقيقيًا ادعائيًا ؛ لتوجه النفي إلى سائر الصفات الأخرى غير الصفة المذكورة على سبيل الادعاء والمبالغة .

وقد استخدم طريق النفي والاستثناء دون غيره من أساليب القصر ؛ ليبرز كلامه في صورة قوية مؤكدة ، لا تقبل الشك أو الإنكار ؛ لأنه كلام صادر من نفس خبيرة مجربة ، فاقت خبرتها خبرة اللبيب الخبير بأحوال الناس . وتلحظ أن المتنبي قد استخدم فعل الرؤية مع الود فقال : (فلم أر ودهم) ، واستخدمه ـ أيضًا ـ مع النفاق ، وفي هذا دلالة على أن هذا الحكم الصادر من المتنبي على الناس ليس عن سماع ، وإنما عن مشاهدة ومعايشة ، وإدراك .

<u>ومما جاء من حديث المتنبي عن خبرته وتجاربه قوله[١] :</u>

وأبصرَ مــن زرقاءِ جَوٍّ لأنّنــي متى نَظَرَتْ عَيناي ساواهما عِلمي
كأنّي دحــوْتُ الأرضَ مــن خبرتي بها كأنّي بَنَى الإسكَندرُ السدّ مِن عزْمي

يتحدث المتنبي في هذين البيتين عن خبرته وعلمه بالأمور ،وقد جاء هذان البيتان في قصيدته التي مدح بها الحسين بن إسحاق التنوخي ، وقد بدأها بقوله :

مَلامي النّوى في ظُلْمِها غايةُ الظّلمِ لَعَلّ بها مِثْلَ الذي بي من السُّقْمِ

وقد اتخذ المتنبي هنا من المثل وسيلة لإثبات خبرته بالأمور وذلك في قوله : (وأبصر من زرقاء جو) وزرقاء اسم امرأة من أهل جو ، وجو قصبة باليمامة ، وقد كانت هذه المرأة حديدة البصر تدرك ببصرها الشيء البعيد ، فضربت العرب بها المثل في حدة البصر[٢] . وفي استعمال المتنبي المثل إثبات لقوة علمه ، وشدة خبرته ، وإحاطته بالأمور ، لأن المتنبي لم يستعمل هذا المثل لمجرد إثبات حدة بصره ، وإنما استخدمه ليثبت أن علمه وخبرته أقوى وأسبق من بصره مع ما ثبت للبصر من الحدة ، وقوة النظر . وفي أسلوب الشرط في قوله : (متى نظرت عيناي ساواهما علمي) دلالة على سبق علمه وخبرته لحدة بصره ، في كل وقت وزمن . وفي رواية أخرى جاء التعبير بـ (إذا) بدلاً من (متى) فقيل : (متى نظرت عيناي) وهذه الرواية أبلغ ، وذلك لما في (إذا) من الدلالة على تحقق سبق علمه وخبرته لحدة بصره ، كما أن في التعبير بـ (إذا) إظهارًا لقوة ثقة المتنبي في خبرته وعلمه بالأمور . وبعد أن استخدم المتنبي المثل في البيت الأول جاء التشبيه في البيت الثاني في قوله : (كأني دحوت الأرض من خبرتي بها) ليتآزر ويتضافر مع المثل في إثبات هذا العلم ، وتلك الخبرة ، فقد جاء التشبيه في الشطر الأول في قوله : (كأني دحوت الأرض من خبرتي بها) ؛ ليؤكد خبرة المتنبي ، بكل الأمور التي تدور على وجه الأرض ، فقد جعل نفسه من شدة خبرته بالأرض ، وما يدور فيها كأنه بسطها . والمتنبي بهذا التشبيه قد بالغ مبالغة غير مقبولة ؛ لأن الذي دحى الأرض وبسطها هو الله سبحانه وتعالى . فقد أسند المولى ـ عز وجل ـ هذا الفعل إلى نفسه ، وذلك في قوله تعالى :
{ والأرض بعد ذلك دحاها [٣]} .

وقد أعقب المتنبي هذا التشبيه الذي بالغ فيه في بيان خبرته بما يدور على الأرض بتشبيه آخر يبرز قوته وعزيمته وإرادته ، وذلك في قوله : (كأني بنى الإسكندر السد من عزمي) .

---

(١) الديوان ٨١
(٢) ينظر مجمع الأمثال لأبي الفضل أحمد بن محمد الميداني النيسابوري ت / محمد محي الدين عبد الحميد ١ / ١١٤ ط دار المعرفة- بيروت .
(٣) الآية { ٣٠ } سورة النازعات .

وتلحظ أن المتنبي قد استخدم في التشبيه الأول والثاني(كأن) ؛ للدلالة على قوة الشبه ، وذلك لأن قوة الشبه تعكس قوة اتصاف المشبه بالصفة التي يراد إثباتها . ففي التشبيه الأول أراد المتنبي إثبات شدة خبرته بما يدور على وجه الأرض ، وفي التشبيه الثاني أراد أن يثبت قوة العزيمة والإرادة التي جعلت الإسكندر كأنه بنى سده العظيم من عزيمة المتنبي .

والعلاقة بين قوة العزيمة التي كشف عنها التشبيه الثاني ، وقوة الخبرة التي كشف عنها التشبيه الأول هو أن الخبرة والمعرفة تحتاج إلى قوة العزيمة والإرادة التي تساعد على التحرك والترحال،والتعامل مع الفئات المختلفة من البشر في تقاليدها وعاداتها وطبائعها ، وكل ذلك يساعد على تكوين الخبرة والمعرفة .

ومما سبق من حديث المتنبي عن خبرته وتجاربه يتضح أن شعره في هذا الجانب يميل إلى الحكمة ، ويخرج من تجربة شعرية صادقة ، فهو يترك الاعتداد الزائد بالنفس الذي لازمه كثيرًا في الحديث عن ذاته ، ويبعد عن الخيال والمبالغات المفرطة ، ويوافق شعره ما في قلبه من هموم والآم ، ويظهر فيه الصدق ، مع جمال الصياغة واللفظ .

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين وبعد :-

ففي نهاية هذه الرحلة في شعر المتنبي الذاتي ، كان لا بد للبحث من وقفة يرصد فيها أهم نتائجه ، والتي منها :

أولاً : أن الذاتية في شعر المتنبي اتخذت منهجًا يخالف منهج معظم الشعراء العرب ، فقد كان الشاعر العربي لا يفرد ذاته بالحديث ، وإنما يتحدث عن ذاته وصفاته في بوتقة الحديث عن قومه ، فالشعر الجاهلي على سبيل المثال " اختفت منه النزعة الذاتية ؛ لتحل محلها النزعة الجماعية ، وذابت منه الشخصية الفردية ، لتظهر بدلاً منها الشخصية القبلية ، وظهر ضمير الجماعة (نحن) مكان ضمير الفرد (أنا) [١] ومن هنا فإن الشاعر الجاهلي أهدر ذاتيته ، وصار مجرد بوق لقبيلته[٢] " ، بخلاف الذاتية في شعر المتنبي فقد غاب فيها ضمير الجمع ليحل محله ضمير النفس (أنا) الذي يعكس إعجاب المتنبي واعتداده الزائد بشخصيته ، فقد ذابت ذاتيته في الحديث عن نفسه ، مما جعل أهم ما يميز شعر المتنبي بروز شخصيته فيه وفخره بنفسه ، وإعجابه بذاته .

ثانيًا :المبالغة المفرطة سمة ظاهرة في شعر المتنبي الذاتي ، وهو يعكس ما في شخصية المتنبي من اعتداد زائد بالنفس ، وثقة ليس لها حدود في قدرات هذه النفس .

ثالثًا :من الظواهر في حديث المتنبي عن ذاته استخدام الصور الخيالية التي يبرز من خلالها قوة الصفة التي يتحدث عنها ، وهذه الصور الخيالية تبرز ما في شخصيته من التمرد على الواقع وعدم الرضا به ، وكأن المتنبي كان يعيش بخياله ما لم يستطع أن يحققه في واقعه .

رابعًا : الصورة البيانية بما تحويه من تشبيه ، وكناية ، واستعارة من أكثر الأساليب البلاغية التي استخدمها المتنبي في حديثه عن صفاته ، وذلك لما في هذه الصور من إبراز هذه الصفات المعنوية ، وتحويلها إلى صور حسية تجعلها أقوى في التأثير ،وأبلغ في التعبير ، وهذه الصور البيانية مستمدة ـ غالبًا ـ من البيئة والطبيعة .

خامسًا : بيان مقدار الصفة في المشبه به سمة من السمات الظاهرة في حديث المتنبي عن صفاته ، فالمتنبي ـ غالبًا ـ ما يقيد المشبه به بوصف يظهر الصفة في أقوى صورها ، فعلى سبيل المثال تجده في قوله : (أنا صخرة الوادي إذا ما زوحمت) لا يقتصر على تشبيه نفسه بالصخرة ، وإنما يختار نوعًا معينًا من الصخر وهو صخرة الوادي ؛ ليبرز بذلك ثباته في منزلته ومكانته في أقوى الصور ،وعندما يشبه نفسه بالسيف لا يكتفي بمجرد السيف ، بل إنه يأتي بصفة تبين قوة السيف وصلابته التي يتفوق بها على كل السيوف من ذلك قوله :

(وما الصارم الهندي إلا كمثله ... إذا لم يفارقه النجاد وغمده).

سادسًا : المتنبي لم يتحدث عن كرمه ، مع أن الكرم من أبرز الصفات التي يصف بها الشاعر العربي نفسه ، وهذا يجعلني أتفق مع ما جاء في بعض كتب الأدب[٣]من أن المتنبي كان بخيلاً.

سابعًا : يظهر في حديث المتنبي عن ذاته عدم التقيد بضوابط الشرع ، وعدم الرضا بواقعه ، "على أن الديانة ليست عيارًا على الشعراء ، ولا سوء الاعتقاد سببًا لتأخير الشاعر ، ولكن للإسلام حقه من الإجلال الذي لا يسوغ الإخلال به قولاً ، وفعلاً ، ونظمًا ، ونثرًا [٤]" .

(!) الروائع من الأدب العربي ـ العصر الجاهلي ـ تأليف د / سيد حنفي وآخرين ١ / ٢٣ مطبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب .
(٢) ينظر تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام د / شكري فيصل ص ٢٣ مطبعة دمشق ١٣٨٣ هـ ـ ١٩٦٤م .
(٣) ينظر أبو الطيب في مصر والعراقين ص ٢٨
(٤) يتيمة الدهر ١ / ١٢٠

ثامنًا : أن الاعتداد الزائد بالنفس عند المتنبي لم يكن عيبًا فيه كما يرى كثير من النقاد والأدباء ، وإنما هو طبيعة كان يتطلبها العصر الذي كان يعيش فيه ، هذا العصر الذي فقدت فيه الشخصية العربية هويتها ، وضاعت فيه هيبتها ، وأصبحت مقاليد الحكم فيه لغير العرب ، فكان وجود هذا الاعتداد بالنفس،والاعتزاز بها ضرورة في هذا العصر ، فالمتنبي ـ من وجهة نظري ـ مثال للشخصية العربية المعتزة بنفسها ، وعروبتها ، التي لا تقبل الإهانة و الذل .

فهرس المصادر والمراجع

١	أبو الطيب المتنبي في مصر والعراقين دكتور / مصطفى الشكعة ط عالم الكتب ط أولى ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣م .
٢	أسلوب الدعوة القرآنية بلاغة ومنهجا د / عبد الغني سعد بركة - ط ١ ، مكتبة وهبة ١٤٠٣هـ -١٩٨٣ م
٣	الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم للعلامة إبراهيم بن محمد بن عريشاه عصام الدين الحنفي ، ت - عبد الحميد هنداوي ، منشورات علي بيضون ، دار الكتب العلمية ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١م
٤	الأعلام للزركلي ط دار العلم للملايين بيروت لبنان ، الطبعة الخامسة عشرة ٢٠٠٢ م
٥	الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف من الأسماء والألقاب ، تأليف علي بن هبة الله ابن أبي مضر بن ماكولا ط دار الكتب العلمية - بيروت لبنان - ط أولى ١٤١١ هـ
٦	الأنساب للإمام أبي سعيد عبد الكريم بن محمد أبي منصور التميمي السمعاني ، ت عبد الله عمر البارودي ، ط دار الجنان ط أولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م
٧	الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني ت الشيخ / بهيج غزواي ط دار إحياء العلوم - بيروت ط الرابعة ، ١٤١٩ هـ -
٨	بغية الإيضاح تأليف الشيخ عبد المتعال الصعيدي - مكتبة الآداب - ط ١٧ - ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥ م
٩	تاريخ بغداد للإمام الحافظ أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي ت / دكتور / بشار عواد معروف ط دار الغرب الإسلامي ط أولى ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١م .
١٠	التبيان في شرح الديوان لأبي البقاء العكبري ت د / كمال طالب ، منشورات محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان ط ١أولى ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م .
١١	التصوير البياني (دراسة تحليلية لمسائل البيان) د / محمد محمد أبو موسى - ط ٤ مكتبة وهبه ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م .
١٢	التصوير البياني في شعر المتنبي د / الوصيف هلال الوصيف ط مكتبة وهبه ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٦ م
١٣	التصوير الفني للشهيد سيد قطب ، ط ١٤ ، دار الشروق .
١٤	تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام د / شكري فيصل مطبعة دمشق ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٤م .
١٥	التعريفات تأليف علي بن محمد الشريف الجرجاني ط جديدة مكتبة لبنان بيروت ١٩٨٥ م .
١٦	تهذيب اللغة لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري ت محمد عوض مرعب ط - دار إحياء التراث العربي - بيروت ٢٠٠١ م .
١٧	جواهر البلاغة تأليف السيد أحمد الهاشمي - ت حسن النجار محمد - ص٢٢٥ - مكتبة الآداب - ط ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م) .
١٨	دلائل الإعجاز تأليف الإمام عبد القاهر الجرجاني ت / محمود محمد شاكر مطبعة المدني - دار المدني بجدة ط ٣ ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢م .
١٩	دلالات التراكيب د/ محمد محمد أبو موسى مكتبة وهبة ، ط ٢ ، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧م .
٢٠	ديوان المتنبي ط المكتبة الثقافية - بيروت - لبنان
٢١	رسالة الغفران لأبي العلاء المعري ت د / عائشة عبد الرحمن ، ط دار المعارف - الطبعة التاسعة
٢٢	رصف المباني في حروف المعاني للإمام أحمد بن عبد النور المالقي ، ت أحمد محمد الخراط - مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق(بدون تاريخ).

٢٣	الروائع من الأدب العربي ـ العصر الجاهلي ـ تأليف د / سيد حنفي وآخرين مطبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب .
٢٤	سر صناعة الإعراب لأبي الفتح عثمان بن جني ت / حسن هنداوي ط دار القلم ـ دمشق ط ١ / ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥م .
٢٥	شرح ديوان المتنبي لعبد الرحمن البرقوقي ط دار الكتاب العربي ـ بيروت لبنان ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠ م
٢٦	شروح التلخيص / ط دار السرور ، بيروت ، لبنان (بدون تاريخ) .
٢٧	الفسر شرح ابن جني الكبير على ديوان المتنبي لأبي الفتح عثمان بن جني ت د / رضا رجب ، الطبعة الخامسة ـ دار الينابيع ـ دمشق ، ط أولى ٢٠٠٤م .
٢٨	القاموس المحيط لمحمد بن يعقوب الفيروزابادي ط مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ لبنان (بدون تاريخ)
٢٩	لسان العرب لابن منظور ،ط دار صادر ـ بيروت ، الطبعة الأولى .
٣٠	لسان العرب لابن منظور ط١ دار المعارف بدون تاريخ .
٣١	المآخذ على شرح ابن جني الموسوم بالفسر لابن معقل المهلبي ت د / عبد العزيز بن ناصر المانع ـ ط مركز فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ١٤٢٢ هـ .
٣٢	المتنبي (رسالة في الطريق إلى ثقافتنا) للأستاذ محمود محمد شاكر مطبعة المدني ـ دار المدني بجدة ١٤٠٧هـ ـ١٩٨٧ م.
٣٣	المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير (ضياء الدين نصر الله بن محمد بن محرم) ت / أحمد الحوفي ، د / بدوي طبانة ، ط نهضة مصر ، القاهرة ـ ١٣٦٩هـ ـ ١٩٥٩م .
٣٤	مجمع الأمثال لأبي الفضل أحمد بن محمد الميداني النيسابوري ت / محمد محي الدين عبد الحميد ط دار المعرفة ـ بيروت .
٣٥	المحيط في اللغة لأبي القاسم إسماعيل بن العباس بن أحمد بن إدريس الطالقاني ت الشيخ محمد حسن آل ياسين ط عالم الكتب ـ بيروت ط أولى ١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٤م .
٣٦	المخصص لأبي الحسن علي بن إسماعيل النحوي اللغوي الأندلسي ت خليل إبراهيم جفال ، ط دار إحياء التراث ـ بيروت ط ١ ـ ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦ م .
٣٧	المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي ، لأحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي ط المكتبة العلمية ـ بيروت .
٣٨	المطول في شرح تلخيص المفتاح لسعد الدين التفتازاني الهروي المكتبة الأزهرية للتراث ١٣٣٠ هـ
٣٩	معجم العين للخليل بن أحمد الفراهيدي ت د / مهدي المخزومي ، د / إبراهيم السامرائي ط دار مكتبة الهلال بدون تاريخ .
٤٠	مغني اللبيب عن كتب الأعاريب تأليف جمال الدين بن هشام الأنصاري ت / د/ مازن المبارك ـ محمد علي حمد الله ـ ط دار الفكر ـ دمشق ط رقم ٦ .
٤١	مقاييس اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا ، ت عبد السلام محمد هارون ط دار الجيل بيروت ـ لبنان ط ٢ ـ ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م
٤٢	مقدمة تحقيق اللامع العزيزي ، شرح ديوان المتنبي لأبي العلاء أحمد بن عبد الله المعري ت ـ محمد محمد سعيد المولوي ، ط مركز فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ، ط أولى ١٤٢٩ هـ ـ ٢٠٠٨م .
٤٣	مقدمة تحقيق معجز أحمد لأبي العلاء المعري ت د / عبد المجيد عبد الجيد دياب ط ٢ دار المعارف ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م.

٤٤	من أسرار التعبير القرآني (دراسة تحليلية لسورة الأحزاب) د / محمد محمد أبو موسى ، ط ٢ ، مكتبة وهبة ١٤١٦ هـ - ١٩٩٧م
٤٥	النقد المنهجي / محمد مندور ط دار نهضة مصر .
٤٦	يتيمة الدهر لأبي منصور عبد الملك بن بحر بن إسماعيل الثعالبي ، ت مفيد محمد قميحة - ط دار الكتب العلمية ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣م .